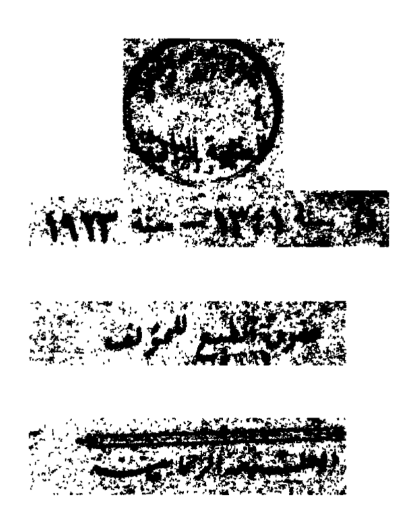




صفوة المنشآت

بقلم

احمد زكى صفوت

من خريجى دار العلوم

ومدرس اللغة العربية بمدرسة الأمير فاروق الثانوية



الجزء الأول

الطبعة الثانية منقحة

فى سنة ١٣٤١ — سنة ١٩٢٣

المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم أجل حمد ، ونصلى ونسلم على صفوة خلقك وآله وصحبه أفضل صلاة وأزكى سلام ، وبعد فتلك مجموعة نماذج إنشائية كتبتها للطلبة ، وعن لى طبعها ضنا بوقتهم أن يضيع فى إملائها ، ورجاء أن ينتفع بها سواهم من محبى العربية .

وقد طبعت الجزء الأول منها سنة ١٩١٥ ، ونفدت جميع نسخه منذ سنين ، وحالت عوائق جمة دون إعادة طبعه ،وإصدار سائر الأجزاء ، واليوم وفقنى المولى القدير أن أستكمل ما بدأته ، وهأنذا أعيد طبع الجزء الأول ، وأصدر الثانى ، مستمداً منه تعالى المعونة على متابعة ذلك العمل ، الذى أراه نافعاً للطلبة ، مقوماً لأقلامهم .

وإراحة للقارئ من عناء المراجعة والتنقيب فى بطون المعجمات عن معانى الكلمات اللغوية ، ذيلت كل صفحة بشرح

وأنت أيها الوطن الجديد :

أنت جنة ناضرة ، وروضة زاهرة ، سماؤك مُصحية ، وشمسك زاهية ، ونسيمك عليل ، وماؤك عذب كالسلسبيل [1] ، وحَصباؤك در ، وترابك تبر ، وأرضك تدِرُّ الخيرات ، وتفيض بالبركات ، كل مافيك إلى قلوب ساكنيك مشتهى محبوب ، ولكنه فى عينى قَذى [2] ، وفى حلق شَجا [3] ، وإلى قلبى بغيض ممقوت ، وأنىَّ لى أن أرضى بك عن وطنى بديلا ، وقد حجبت سماؤك بدور أحبتى ، وكواكب عشيرتى ؟

أنَّى تطيب لى فيك الحياة ، وأنا لاأرى رُحبك إلا ضيقاً ، وضياءك إلا ظلاما دامساً ، ونجومك إلا رجوماً منقضّة علىّ ، وأهليك إلا أفاعى تسعى إلىّ ، وإقامتى فيك إلا ثَواءً [4] ببطون القبور !!!

سُحقاً لك من صاحب ثقيل الظل ، جامد النسيم ، صفيق [5] الوجه ، اغرُب عنى ، فلأنت أثقل على فؤادى من الدواء على العليل ، والضيف على البخيل ، والدائن على الغريم [6] ، والنقيصة على الكريم ، والفضيلة على اللئيم ، كيف تصحب من برغب

(١) اسم عين فى الجنة (٢) مايقع فى العين فتتأذى به (٣) ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه (٤) إقامة (٥) وقح (٦) المدين.

عن مصاحبتك ، وتصل من يصبو إلى مقاطعتك ، اقطع حبال مودتى حتى تطيب نفسى ، ويقر ناظرى ، ويَثلَج [1] خاطرى ، ويُبل أُوامى [2] ، ويشفى سَقامى .

أنى يلَذ لى فيك العيش ؟ وأنا أصطلى بنيران الفراق ، وأتقلب على أشواك الوَحدة ، لا خليل أبثه شكواى ، ولا أنيس ينفّس عنى حر بلواى . يسدل على الليل أستاره ، ويسطو بجحافل [3] همومه ، فأسبح فى بحر لجىّ [4] من الأفكار ، وتغرق عينى فى لجج الدموع ، ويجفو جفونى الوسَن [5] ، ويحالفنى الشجو والشجَن [6] ، فأبيت متوسداً السُّهاد ، مفترشا القتاد [7] ، قد أقضّ [8] على المضجع ، وحاربنى الفراش ، وتنازعتنى الأوهام ، وافترستنى الهواجس ، ولج بى الشوق ، ويئست من الإصباح ، أتطلع إلى السماء أراعى النجوم ، فإذا هى جامدة فى مدارها ، لا تتزحزح عن أفلاكها ، فأنشد :

فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مُغَار [9] الفتل شُدت بيَذْبُل

---

(١) يطمئن (٢) حر العطش (٣) الجيوش الجرارة (٤) عميق (٥) النعاس (٦) الهم والحزن (٧) شجر شائك (٨) خشن (٩) أى بكل حبل محكم الفتل ويذبل اسم جبل

وربما خالست سلطان الليل ، وقد قام على حِراسة حصن النوم ، فلا أكاد ألج بابه ، حتى يغرى بى الأحلام ، فتسل على سيوفها ، وتُشرِع [١] إلى رماحها ، فتردنى خاسئا خاسرا ، أرتد فإذا جيوش الأفكار بالمِرصاد ، تتحفّز [٢] للوثوب على ، وتستجمع قواها للتنكيل بى ، فأغالبها وتغلبنى ، وأصارعها فتقنصنى وتُصمينى [٣]

هكذا أُفنى لخمة الليل وهكذا أقضيه ، حتى إذا اقتنص بازى الصبح غراب الظلام ، خلتنى قد أفلتّ من مخالب ذلك العدو القاهر الجبار ، ولكن أنىّ وإلى أين ، وقد سل علىّ صارمَه النهار ؟ تشابه الأمران ، وتضافر [٤] على كيدى الجديدان ؟؟؟

عناء ويأس واشتياق وغربة   تعددت البلوى على واحد فرد

ولو أن مابى بالحصا فلق الحصا   وبالريح لم يُسمع لهن هبوب

وما ذا عسى أن يبقى من جثمانى ، ومُدى الهم تعرُق [٥] لحمى ، وسوس التفكير يعُث [٦] عظامى ، ونسور اليأس تمتص دمائى ، ونار الشوق تصهر قلبى ، حتى غدوت وأنا

---

(١) تسدد (٢) تتأهب (٣) أصماه رماه فقتله مكانه (٤) تعاون والجديدان الليل والنهار : (٥) تزيله عن العظم (٦) عثت العثة الصوف أكلته .

رُوح تَردد فى مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أنى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وشكيتى [1] فقد السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء

كأنى قد أشفق على الشفق فاحمرت عيونه، والتهبت جفونه، واعتل لعلتى النسيم، ورقت لرقة حالتى الأهواء، ودوت لأدوائى [2] الرياح، واكفهرت لنكبتى السماء، وشق شجوى على الغمائم، فبكتنى بدمع هتون [3] ووابل مدرار، ورثت لى الحمائم، فناحت على الأيكات، [4] وأخذت الأغصان بى رأفة، فحنت على، وانعطفت إلى، وتوجع لى النجم، فبات معى ساهرا، ولى مسامرا، انظر إلى الغزالة، يتجل لك سقمى واعتلالى، وشحوبى [5] واصفرارى، ثم ارجع البصر كرتين إلى الليل البهيم [6]، يتمثل لك حظى الأسود، ورجائى المظلم، وعيش الحالك.

آه أيها الأحباب:

قد سلوت عن كل نعيم فى هذه الحياة إلا عن نعم قربكم، ولم تنل منى وعثاء [7] الاغتراب ما نال منى ترديد ذكراكم، ولم يُرق عينى شىء من هذا الورى بعد وجوهكم.

---

(١) شكواى (٢) جمع داء (٣) غزير (٤) الاشجار الملتفة الكثيرة (٥) تغير اللون
(٦) الشديد السواد (٧) مشقة.

يامن يعز علينا أن نفارقهم   وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم

وكيف أسلو عنكم، أو أصدِف [١] عن تذكركم، وأنتم سويداء القلب، وإنسان العين، وغذاء الروح، وأمنية النفس، أنتم لحمة [٢] الأنس وسداه، ولفظ الصفاء ومعناه، أنتم تِرياق لقلبي المدنف، ومنهل عذب لروحي الصادية، [٣] أنتم سُلوانة [٤] الثّكلان، ومَغوثة اللهفان، وأحلى لدى من عَزف [٥] القِيان، وأطيب نشرا من عَرف الريحان، وأندى من يانع الزهر، وألذ في عيني من إغفاءة [٦] الفجر، أنتم ضالتي المنشودة، وطَلِبتي المقصودة، أنتم عُلالتي التي بها أتعلل، فإن لم تقدر لي الرُّجعى إليكم، فأهوِنْ بحياة أخس من سقَط المتاع [٧].

ويا موت زر إن الحياة ذميمة   ويا نفس جدى إن دهرك هازل

أيها الأحباب:

انتثر عقد الاجتماع، وانفصمت عروته، ونضبت شِرعته [٨] وطال أمد الفراق، وعز التلاق، وأقفر مجلسي من السُّمار والندماء، إلا من خيال منكم يزورني فيشفي علّتي، ويُروي غلّتي،

---

(١) أعرض (٢) لحمة الثوب بالفتح والضم ما ينسج عرضاً والسدى ما ينسج طولا (٣) العطشى (٤) خرزة تدفن في الرمل فتسود فيبحث عنها وتوضع في ماء فيسقاه العاشق أو الحزين فيسلو وهي من خرافات العرب. والثكلان من فقد حبيبه (٥) غناء والقيان جمع قينة وهي الجارية المغنية (٦) نومة (٧) رديئه (٨) جف مورده.

ويُلم بي فيسَرى[1] عنى الأحزان ، ويجلى الأشجان ، وتغهو به النفس ، كأنها فى جنة الفردوس ، تهب ريح ذكراكم الشذية[2] على ذلك القلب الكسير - ولم يبق به إلا الذّماء[3] - فتترعرع فيه غصون الحياة ، وينُشر[4] ميت مناه ، ثم اذكر نأى الدار ، وشطوط[5] المزار ، فأشرق بغصص الأسى ، وتتحلب عيناى بمنهمر الدموع .

ياشِقوتى وبلائى إذا مارأيت المحبين ، وقد ضمهم مجلس السرور ، ورفرفت عليهم طيور الحبور ! ! ! هنالك يعاودنى حزنى ، ويروح[6] إلى عازب همى ، ويعزب عنى صفائى .

تركتمونى بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سنى ندما تارة وأستميح الدمع أحيانا

لله ما أحلى تلك الأيام التى قضيناها بقربكم ، وعشناها بين ربوعكم ، رعى الله أيام كنا نتساقى كؤوس الود الصافية ، ونجتنى أزهار الهناءة الدانية ، أيام كنا والشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر سميع مطيع ، والقدر لاهٍ ، وطرفه عنا ساهٍ .

ليُسقَ عهدكمو عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

---

(١) يكشف (٢) العطرة (٣) بقية الروح (٤) يحيا (٥) بعد (٦) يرجع وعازب أي غائب

مرت تلكم الأيام مرور الطيف ، وانصرمت كأنها سحابة صيف ، أو برق ومض ثم اختفى ، أو شهاب سطع ثم انطفا ، وصرت إلى زمن ساعته شهر ، ويومه دهر ، أعد فيه اللحظات ، وأرقب مرور الهنيهات ، متجرعا مرارة الانتظار ، معلقا بين حبال الرجاء .

زمان تقضى بالمسرة ساعة ويوم تقضى بالمساءة عام

أيها الأحباب :

لا تخالن أن نأيكم قد سحب على ذكراكم ذيل النسيان ، وأن أعاصير[1] البعاد قد محت معالمها ، ودَرَست[2] رسومَها ، فأنى لا أزال ألحظكم بعين الذكر ، وإن حال بينى وبينكم السهل والوَعْر ، وإن عِيانكم[3] ما برح ماثلا فى الضمير ، وإن نزحت الدور .

أسكان نَعمان الأراك تيقنوا بأنكمو فى ربع قلبى سكان

كيف أنتم أيها الأحباب؟ ألعبت بكم يد الأقدار كما لعبت بى ؟ وهل طاف عليكم طائف من الأكدار كما طاف علىّ ؟ تالله إنى ليكاد روحى يفيض إشفاقا لكم ، ونفسى تسيل حسرات عليكم ، كلما ذكرت ما تلقونه لأجلى من الجوى ، وتكابدونه فى من الأسى ،

---

(١) جمع إعصار : ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كأنه عمود (٢) محت (٣) شخصكم .

أجل إن تلك الذكرى لتذكى [١] فى قلبى نارا حرّى ، وتضاعف بلائى وهمومى ، ولكن مالى بذاك يدان ، ذاك صنيع الدهر ، وتلك تصاريف الأيام .

ياوحشتا للغريب فى البلد النـــازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول فى نأيه وغربته عدل من الله كل ما صنعا

من لى أيها الأحباب بمن يخفض زفراتكم ، ويغيض عبراتكم ، ويطفىء لهيب حسراتكم ، ليتنى أستطيع أن أحمل عنكم وِزركم [٢] الذى أنقض [٣] ظهركم ، ليت الرياح تقرضنى ظهرها فأمتطيه إليكم ، ليت الوُرق [٤] تعيرنى أجنحتها فأطير لديكم ، لو أن الدهر يخدع بالرشا [٥] اقدمت إليه بثغر باسم وفؤاد مبتهج كل نُعمى أسدها إلى ، واعتضت منها لحظة أقضيها بجواركم .

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة أناجيكمو حتى أرى غرة الفجر

أواه ياربّاه ، قد قسمت الهموم والأرزاء على الخلائق ، بيد أنى بؤت منها بأوفر قسط وأرجح قسطاس [٦] !!!

رب إن هذا الجسم الضئيل ، الذى اخترمته [٧] الكوارث ،

---

(١) تشعل ونار حرى شديدة الحرارة (٢) الحمل الثقيل (٣) أثقل (٤) الحمام (٥) جمع رشوة مثلثة الراء وهي الجعل (٦) ميزان (٧) استأصلته .

وبرّحت به العلل ، لينوء[1] به ذلك الوقر الثقيل ، والخطب الجليل.

رب قد نفد الصبر ، ونذ السلوان ، وأكل مقراض اليأس خيوط الرجاء ، فتداركني بغوثتك وإنجادك .

حنانيك[2] أيها الزمان ، فقد بلغ السيل الزُّبى[3] وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن[4] ونالني ما حسبي به وكفى ، هل لك أن تكبح جماحك ، وتقهر شيطانك ، فترثي لأمري ، وتفك أسري ، وتردني إلى وكري ؟

دهرنا أمسى ضنينا   باللقا حتى ضنينا
ياليالي الوصل عودي   واجمعينا أجمعينا

آه يخيل إلى أني لن ألقى أحبتي حتى يلتقي الملَوان[5] ، ويجتمع المشرقان ، ولن أؤوب إليهم حتى يؤوب القارظان[6] ويبلى النيران ، ولكن لا ، تأس أيها القلب وتجلد ، فكائن من خطوب جُلَّى[7] ، تجلت من ثناياها بروق المنى .

ولرب نازلة يضيق بها الفتى   ذرعا وعند الله منها المخرج

---

(١) يثقله ويميله والوقر الحمل (٢) حنانا بعد حنان (٣) جمع زبية وهى حفرة تحفر في ربوة لصيد الاسد فاذا بلغها السيل كان جارفا مجحفاً وهو مثل يضرب لما جاوز الحد (٤) تثنية طبي وهو للخيل كالضرع لغيرها وهو مثل يضرب أيضا فى اشتداد الامر لان الحزام لايجاوز طبي الفرس إلا وقت الهزيمة (٥) الليل والنهار (٦) هما رجلان خرجا يجنيان القرظ فلم يرجعا وهو مثل يضرب في اليأس (٧) شديدة.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

هو ذا يعقوب قد رد إليه مهجة قلبه يوسف، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن ، والذبيح [١] افتدى وقد كادت تحز وَدَجه [٢] مدية أبيه ، وإبرهيم ألقى فى النار فكانت عليه بَردا [٣] وسلاما ، وأيوب قد كشف عنه الضر والبلاء ، بعد أن أيس من الشفاء ، وذو النون [٤] نجّى من الكرب العظيم ، بعد أن كاد يلبث فيه إلى يوم يبعثون .

فيا قلبُ صبراً إن جزعت فربما
جرت سُنُحاً طير الحوادث باليمن [٥]
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها
ويبدو ضياء البدر فى ظلمة الدّجن [٦]
وأى حسام لم تصبه كَهامة ؟
ولهَذَم رمح لا يُفل من الطعن [٧]

---

(١) إسماعيل أو إسحق (٢) عرق فى العنق إذا قطع مات الانسان (٣) باردة لم تحرق منه غير وثاقه وسلاما أى سلم من الموت ببردها (٤) هو يونس والنون الحوت (٥) السانح من الطير ما جاء من مياسرك فولاك ميامنه والعرب يتيمنون به كما يتشاءمون من البارح وهو عكس السانح (٦) الباس الغيم آفاق السماء (٧) سيف كهام أي كليل واللهذم القاطع

الى صديق شرع ينتحر

لرسوبه فى الامتحان

أيها المحزون :

ما كنت إخالك ذلك الجزوع الهلوع الذى تزعزع الحادثات أركان حلمه ، وتفل الكارثات حد صبره ، ويضيق بها ذَرعا (١) ويتخشع من لَأْوائها (٢) جزعا ، أجل ما كان يدور بخَلَدى أن تفعل فعلتك التى فعلت وأنت من الضالين ، ما كان يخالج خاطرى أن تجسُر على إزهاق روحك البريئة من أجل أن طاش سهمك ، وساء فألك ، وأخطأك غرض دنيوى — والأغراض الدنيوية كلها حقيرة ، لاتعدِل قطرة من دمك الغالى .

ياعجبًا كل العجب ! أنالت منك المصيبة منالها ، واستحكمت فى قلبك حلقاتها ، حتى لم يبق فِي قوس حلمك مِنزَع (٣) ، ولا فى متسع صبرك موضع ؟ وهل ضاقت أضلعك بخطوب الدهر ، فلم تر مخلصاً غير سلوك هذا الطريق الوعر ، وركوب ذلك المركب الخشن ؟

وماذا كنت تظن أن تلقاه بعدئذ ؟ أتظن أنك كنت

---

(١) ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه مخلصاً (٢) الشدة (٣) سهم.

ستخلص إلى نعيم أبدى ، وصفاء سرمدى ، [1] لا يشوبه رَنق [2] ولا تكدير ، ولا يعكر صفوه معكر ؟ كذَبتك نفسك ، كيف تطمع فى ثواب الله، وأنت بنعمته كفور ، ولقدره معارض، ولإبرامه ناقض ؟

زج بك فى هذه الحياة الدنيا ، وليس لك من خِيرَة [3] ولا إرادة ، خلقت ضعيفاً لاحول لك ولا طَول [4] ، ولا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً ، بل هو الإله خلقك لحكمة يشاؤها ، وقدر عليك ما تلقاه فى دنياك من خير وشر ، فلمَ لا تذعن لقضائه ، وتستسلم لقدره ؟ ولم لا تدع صاحب الروح وبارئها يقبضها أنّى شاء ؟ اللهم إن هـذا العدوان منك على حقوق مولاك ، والله لا يهدى كيد العادين .

ياعجبا ! أفى الساعة التى يتوب فيها العاصى ، ويُنيب [5] المجرم ، ويتطهر من أدران معاصيه ، تقدم على معصية ربك ، وتلطخ صحيفتك بهذه الوصمة الشنعاء ؟

ألا تعلم أن جناية المرء على نفسه أكبر مقتاً ، وأعظم إثماً من جنايته على غيره ؟

---

(١) دائم (٢) تكدير (٣) اختيار (٤) القدرة (٥) يتوب .

ألا تعلم أنك كنت ستخلد لك ذكراً سيئاً ، وتسجل على نفسك بيدك تاريخاً أسود ؟

أَلا تعلم أنك كنت ستجنى على أهلك ، الألى يعدونك حبة قلوبهم ، وريحانة صدورهم ، ويأْمُلون منك أن تكون لهم وَزرًا [1] يستمِدُّون [2] به على عاديات الأيام ؟

ألا تعلم أنك كنت ستُذكى فى قلوبهم نار الحزن ، وتَبخَع [3] نفوسهم وجداً عليك ؟

وهل أخذت على الدهر ميثاقاً ألا يوافيك إلا بما تحب وتهوى ، وألا يجىء بغير ماترضى ؟ ومتى كان مِطواعا للمرء خادماً له ؟ تالله إنه لحُوّل [4] قلّب ، يهب ليسلب ، ويُلبس لينزع ، ويحلو ليُمِر ، يرضع المرء أفاويق [5] النعيم ، ويُرشفه رُضاب [6] الهناءة ، ثم لايلبث أن يجمح به نافراً ، ويرمحه [7] مولّيا .

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

صديقى . أنت أحد رجلين . إما أن تكون قد تزودت

---

(١) ملجأ (٢) يستنصرون (٣) بخع نفسها قتلها غما (٤) كثير التحول وقلب كثير التقلب (٥) الفيقة اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والجمع أفواق وجمع الجمع أفاويق (٦) الريق (٧) يرفسه.

للامتحان، وأعددت لهُ عدته وَعتاده [١]، ثم زلت بك القدم ، ولم يكن لك فى ذلك من يد ، فلا لوم عليك ولا تثريب [٢] ، فقد أتيت مافى وسعك ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

وأما أن تكون قد أرخيت لنفسك العِنان ، فرتعت فى مراتع البَطالة ، وتفيأت ظلال اللهو واللعب، واستمرأت الفراغ وألفته ، فما أحراك آنئذ أن تُنحى على نفسك باللائمة ، فتقول : يانفس هذه عاقبة تفريطك ، ونتيجة إهمالك ، أتفرطين وتهملين ، فإذا مافاتك مأربك تحزنين ؟ بذرتِ حَسَكا [٣] ، فهل تبغين أن تحصدى وردا ؟ تقاعست [٤] وتناعست عن مسابقة أولئك الفُرسان ، ثم ترومين أن تكونى مُجلية [٥] ؟

ها قد وضح لكِ طريق نجاحهم فاسلكيه، تحظَىْ بما حظوا به ، ومن سار على الدرب وصل .

هيا ارأبى [٦] ذلك الصَّدْع [٧] ، وسُدى تلك الثُّلمة ، بالجد

---

(١) عدته (٢) لوم (٣) نبات عندورقه شوك (٤) تأخرت (٥) المجلى أسبق فرس فى الحلبة (٦) أصلحى (٧) الشق .

فى الدرس ، والمثابرة على الاستذكار ، حتى تكونى فى حَلْبة[1] الامتحان القابل أسبق الجوالين .

استحوذ عليك شيطان الغرور ، فخيل إليك أن سعادتك رهينة تلك الشهادة ، وهناءتك طى صحيفتها ، وأنك إن أحرزتها ملكت ناصية السؤدد والعلاء ، ودانت لك الأيام صاغرة ، ولاحظتك الحكومة عيونُها ، فتبوأت أرائك[2] مناصبها ، وبؤت بمستقبل سعيد ، وَجد جديد ، وعز مديد ، وذكر مجيد ، وغدوت يشار إليك بالبنان ، وتسير بسيرتك الركبان ، ويبجلك[3] الكبير قبل الصغير ، ويؤمك الغنى قبل الفقير ، وأنك إن أخطأتها أُوصدت[4] فى وجهك أبواب الحكومة ، فتضيق عليك سبل العيش ، وتحرم لذة الحياة .

وهم باطل ، وزعم كاذب ، قد غشى[5] أبصار المصريين ، وطمس بصائرهم ، فأصبحوا يسبحون بحمد الحكومة ، ويرون أن لا عيش إلا عيشها ، وأن من وسعته فقد وسعه صدر النعيم ، ووطأ[6] له أكنافه ، ومن نبذته وأقصته عن دورها ، تنمرت[7]

---

(١) خيل تجتمع للسباق من كل أوب (٢) جمع أريكة وهى سرير منجد مزين فى قبة أو بيت (٣) يعظمك (٤) أغلقت (٥) غطى (٦) مهد والأكناف جمع كنف وهو الجانب (٧) تنكرت وتغيرت .

له الأيام ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان [1] .

قلب الطرف نحو الغربيين ، ألم تر إليهم كيف يضربون فى الأرض، ويمشون فى مناكبها [2] ، ويلتمسون الرزق فى خباياها ؟ ألم تر إليهم وقد ساحوا فيها فكشفوا مجاهلها ، وعمروا خرِباتها ، ونزلوا إلى جوفها فاستخرجوا دفائنها، وغاصوا فى بطون البحار فأخرجوا كنوزها ، شاركوا الأسماك فى مسارحها ،وَالطيور فى مسابحها، واستمتعوا بالحياة وخيراتها ، واخترعوا من المخترعات ما يخلُب اللب ، ويسلب العقل .

فعلوا ذلك كله ، وهم بمنأى عن الحكومة لا يرجون أن تمد إليهم يدا ، أو ترمُقهم بطرف ، أما نحن فنتعلق بأذيالها، ونستمسك بأهدابها .

أقبل على نفسك فاستكمل فضائلها ، واستتم علومها ، ثم خض غمار الحياة، غير منتظر جَوازا [3] ، ولا نادب على شهادة .

تعلم العلم لا للمال ، فليس العلم سِلعة تباع وتشترى . إن العلم ليجل عن أن يكون وسيلة الارتزاق ، أو ضَرعا يُستدر منه المال .

إن تلك الوريقة ليست بحجة دامغة ، أو برهان ساطع على

(١) الثوب (٢) جوانبها (٣) صك المسافر .

كفاءة حاملها ونبوغه ، فكأين رأينا أماثلَ[1] نابغين ، وفطاحل مبرّزين[2] ، من بين أولئك الذين لم ينالوا شهادة قط ، بل طالما رأيناهم قد بذّوا[3] حملة الشهادات ، وتقدموهم أشواطا .

نعم إن قيمة المرء ومقدرته ، وكفاءته وحذقه ، بما يحويه صدره ، لا بما تنطوى عليه شهادته .

على أنك لست بأول من كبا جواده ، وعثر جده ، بل مثلك كثير ، فلتكن لك فيهم أسوة[4] ، وبهم قدوة ، ولتدّرع بدروع الصبر ، وتعتصِم بحبله ، فليس الجزع بمُغْنٍ عنك فتيلا[5] ، ولا رادٍ لك فوتا ، غير أنه يزيدك شغلا فى البال ، وتنغيصاً فى العيش ، وكراهية فى الدرس ، وانصرافا عنه ، بل توفر على عملك ، ورُض[6] نفسك على احتمال تلك المصاعب ، حتى تجتاز ذلك الطريق بسلام ، وسرعان[7] مايدور الفلك دورته ، ويعقد الامتحان ثانية ، فتظفر بأمنيتك ، وتنال طَلِبتك إن شاء الله ، وإن غداً لناظره قريب والسلام .

---

(١) أفاضل (٢) فائقين (٣) غلبوا وفاقوا (٤) بضم الهمزة وكسرها أى قدوة.
(٥) ما يكون فى شق النواة (٦) من راض الدابة إذا ذللها (٧) مثلثة السين أى سريعاً .

الجنـدى والمعـلم

الخدمة التى يؤديانها للأمة ومقدار مكافأتها لهما

الجندى والمعلم دِعامتا الأمة ، وعليهما تشييد شامخ مجدها ، وباذخ عزها ، وبهما تطاول السماء ، وتطأ هامة الجوزاء ، وتخفُق على ربوعها أَعلام السؤدد والسلطان ، وتزخَر فيها [1] بحور المدنية والعمران ، وتحيا حياة طيبة ، وتعيش عيشة راضية .

الجندى حامى الديار ، ومانع الحُرَم [2] والذّمار ، وموئل [3] الأمة عند البأس ، ورجاؤها عند اليأس ، وكافيها وقت الشدة ، وعدتها على النوازل وأى عدة ، يذُب [4] عن حوضها ، ويذود عن بيضتها [5] ، ويهلِك ليحييها ، وينصَب ليرَفّه [6] عليها ، ويقلق ليطمئنها .

تتفيأ الأمة ظلال النعماء ، وتمرح فى ميادين الهناءة والرخاء ، وهو يجرَع من حياض الشقاء والبلاء ، تتمتع بلقاء الأهل والخلان ، ويعصى شفيع النفس فى أهله وبنيه ، تطعَم لذائذ

(١) تفيض (٢) ما يلزمك حفظه وحمايته وكذا الذمار (٣) ملجأ (٤) يدفع وكذا يذود (٥) حوزتها (٦) ينفس .

الأطعمة ، ويبيت بجمر الطوى [١] يتكوى ، تغط [٢] فى نوم لذيذ ، وسُبات عميق ، ولا تذوق عينه طعم الغُمض ، تتوسد الديباج [٣] والإستبرق ، وتتقلب على وَثير [٤] الفراش ، وهو يفترش الغبراء ، ويلتحف الزرقاء ، تتدثر [٥] وتستدفئ ، ويطويه القر [٦] ، ويهرؤه [٧] الصر .

ينشد صلاء [٨] فلا يصطلى إلا بنار المدافع القاصفة ، ويحدق بعينيه فلا يرى إلا المنية محدقة به ، منشبة فيه أظفارها ، معملة فيه مُرَهفات [٩] صوارمها ، ومُشرَعات رماحها ، وشَبَا [١٠] أسنتها ، وشائك سهامها .

يجوع وجسمه يضحى قربانا ، ويصدَى ودمه يسيل نهراً ، ولقد يتطلب جَرعة ماء — وهو يلفظ النفس الأخير — فتعز عليه ، ثم لا يلبث أن يتجدّل [١١] صريعاً ، يختضب وجهه بالدماء ، ويتعفر [١٢] جبينه بالثرى ، وتطؤه سنابك [١٣] الخيل ، وتتنازع أشلاءه [١٤] وحوشُ الفلا ، وتتمزقه سباع الطير ، وتذرو [١٥] فضالته الرياح .

---

(١) الجوع (٢) غط النائم صات (٣) الحرير والاستبرق غليظه (٤) لين (٥) تدثر بالثوب تلفف به (٦) مثلث القاف البرد (٧) هرأه البرد اشتدعليه حتى كاد يقتله والصر شدة البرد (٨) ناراً يستدفأ بها (٩) سيف مرهف مرقق (١٠) جمع شباة وهى الحد . (١١) يقع على الجدالة وهى الأرض (١٢) من العفر : التراب (١٣) جمع سنبك وهو طرف الحافر (١٤) أعضاءه (١٥) تطير.

هناك حيث رحى المنية تطحن ، ومنجلها يحصد ، وموجها يتلاطم ، وتيارها يجرف ، هناك حيث دوى المدافع ، وصليل القذائف ، يصم الآذان ، وبريق السيوف يخطف الأبصار ، وهول الوغى يخرس الألسنة ، حيث لاترى إلا رءوساً تندر [١] ودماء تهدر ، وأعضاء تتطاير وتتناثر ، وأجساماً تمايل وتتزايل ، حيث تزيغ [٢] الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، تراه يبيع روحه رخيصا فى سوق الموت ، ويقدم جثمانه وقودا لتلك النيران المضطرمة ، وذاك اللظى المتأجج ، تفدية لوطنه ، ومجاهدة فى سبيل إنقاذه .

تلتهمه تلك النار ، وبقلبه تستعر نار الشوق إلى أهليه ، والتوق [٣] إلى بنيه ، إشفاقاً عليهم وقد خلفهم لاموئل لهم من بعده ولا نصير .

رحماك ربى بصبية مهيضى [٤] الجناح ، كل [٥] على مولاهم ، أينما يوجههم لا يأتون بخير ، كانوا لايعرفون من السعادة إلا ائتناسهم بأبيهم ، ومداعبته لهم ، وملاطفته إياهم ، فأصبحوا وقد اكتنفهم الشقاء ، ولعبت بهم يد البأساء والضراء .

---

(١) تسقط (٢) تميل عن مستوى نظرها حيرة (٣) الشوق (٤) هيض الجناح كسر بعد جبوره (٥) ثقل والمولى من يلى أمرهم .

حنانيك اللهم بزوجة كسيرة القلب ، هاطلة الدمع ، لا حول لها ولا طول ، تُذكى أحزانها ، وتأكل قلبها ، أنات صبيتها ، وزفرات أطفالها .

رَعياً اللهم لأمّ تسيل نفسها حسرات على ولدها ، وقد غالته غول [١] المنايا ، وخلفها تتململ على سَيال [٢] الأحزان .

سَقيا اللهم لأسرة نَضب مَعين [٣] ، سعادتها ، وذوى غصن هناءتها بفقد عميدها ، فبدلت بالفرح ترحا ، وباليسر عسرا ، وبالدل ذلا ، وبالهناءة شقاء .

أجل إنك أيها الجندى ، قد تُفلت من مخالب المنون ، وتتخطاك سهام الأقدار . ولكنها لن تدعك أو تفتدى نفسك منها بثمن غال ، لن تدعك إلا أن تُفقأ عينك ، أو يجدع أنفك ، أو يشوه وجهك ، أو يشج [٤] رأسك ، أو تطيح ذراعك ، أو تبتر [٥] يدك ، أو تقد رجلاك ، أو يبقر [٦] بطنك ، أو تفرى أحشاؤك ، أو يمزق كبدك ، أو يَدمَى نحرك ، أو تجرح جُرحا يدوم به شقاؤك ، ولا يهنأ به عيشك ، ولا تستطيع معه سعياً ولا كدحا [٧]

(١) غالته غول أهلكته هلكة (٢) نبات له شوك طويل (٣) مورد (٤) يكسر (٥) تقطع وكذا تقد (٦) تشق وكذا تفرى (٧) سعيا .

فلأن تموت خير لك من أن تحيا مثل هذه الحياة الكدرة، متقلباً على شوك الأمراض، صالياً بنار العلل، مكويا بمياسم[1] الجراح.

لأن تلفظ روحك فى حومة الوغى مرة واحدة، خير لك من أن تموت وتنشر كل لحظة مراراً، من جرّاء تلك الكلوم[2] الناصبة.

وهبك قد وهبت لك الحياة، فسيلحقك ظفر جارح من أظفار أعدائك، فتقرّن[3] فى الأصفاد، وتكبّل بالأغلال، وترزح[4] تحت أعباء الأسر، وترسف[5] فى قيود الذل، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا.

فقل لى بربك أى خدمة أشق أو أعظم من تلك الخدمة، التى بها يعز مقام الأمة، ويرهب جنابها؟ ولولاه لكانت طعمة للطامعين، ونهبا مقسما بين الناهبين، ولفلت شوكتها، وكسرت قناتها، وانتهكت حرمتها، واستبيح حماها.

***

كذلك لا يغيب عن أذهاننا أن المعلم أكبر عامل لرقى

---

(١) جمع ميسم وهو المكواة (٢) الجروح والناصبة المتعبة (٣) تشدو الاصفاد القيود وكذا ما بعد (٤) رزح سقط إعياء وهزالا (٥) رسف مشى مشى المقيد

الأمة، فهو الذى يغذيها بلبان العلوم النافعة، ويوردها مناهل المعارف، حيث تعبر على مجازها[1] إلى مقاصير الحضارة، وصروح المدنية، وتقتعد مركزاً سامياً بين عظمى الأمم، وتتوج بإكليل العز والسناء.

هو الذى يثقف عقولها، وينير أفئدتها، ويقيم أوَدها، ويبث فى روحها مكارم الأخلاق، وحميد السجايا.

هو قائد يدرب تلاميذه كى يقوَوا على الجهاد والنضال فى مَيدان حياتهم المقبلة، مرشد يسلك بهم فِجاج الظلمات، حتى يهديهم سواء السبيل، طبيب يأسُو كلومهم، ويشفى عللهم بالدواء الناجع من علومه وآرائه، والد يعطف عليهم، ويتوخى منفعتهم، ويُطرفهم بما يسرهم.

أنسيت أنه هو الذى يخرج للأمة خِيرة أبنائها، وزهرة رجالها، الذين تُسند مقاليدها إليهم، وتلقى بأزمتها بين أيديهم؟ وأنه ذو اليد الطُّولى، والمآثر الغراء، على الملوك، والأمراء، والوزراء، والمديرين، والقضاة، والمحامين، والأطباء، والمهندسين، والتجار، وغيرهم، من الرجال العاملين النافعين؟ كل أولئك حسنة من حسناته، وثمرة من غراس يديه.

أنسيت أنه يخرج للأمة المؤلفات القيمة، والمصنفات

---

(١) جسرها والمقاصير الدُّور الواسعة المحصنة.

المتعة ، ويودعها من نِتاج قريحته ، وصفوة بحثه وتمحيصه ، ما يعبد [١] للمتعلمين سبل العلم ، ويُدنى إليهم قطوفه ؟

وهل غاب عنك أنه يؤدى كل تلك الأعمال ، وهو دائم النصب ، وافر اللغَب [٢] ، قلق البال ، جم الأفكار ، كثير النظر والتنقيب فى بطون الأسفار [٣] ، يسهر لياليه ، ويقرح مآقيه [٤] ، ويضحى راحته ، ويبذل ثمين صحته فى سبيل نفع الأمة ، حتى لقد ينتابه من جرّاء مايزاوله من تلك المشاق داء عَياء [٥] ، ينفق فيه كل ما جمعته يداه ، دون أن يجد له طبا ؟

نقلب الطرف يَمنة ويَسرة ، فلا نرى أشق من المعلم ، ولا أوفر منه مشقة ، يشتغل ليل نهار ، ويفكر صباح مساء ، ويعمل داخل المدرسة وخارجها ، على حين أن غيره يخلع رداء العمل إذا انتهت ساعاته المحددة .

أى مشقة أوفر من أن يتعهد نشئا متباينى المشارب ، مختلفى المنازع والأهواء والعقول ، فيهم الذكى والغبى ، والضعيف والقوى ، ويسير مع كل منهم حسب مقدوره فى آونة واحدة ، ومكان واحد ؟ بل أى تَبِعة أكبر من التبعة الملقاة على عاتق

---

(١) يمهد (٢) التعب (٣) جمع سفر : الكتاب الكبير (٤) جمع مأق وهو طرف العين مما يلى الأنف (٥) لا يبرأ منه

المعلم ، وهو المسئول أمام الله والملأ وضميره عن تلاميذه ، فلذة أكباد الأمة ، المطالب بأداء تلك الأمانة المودعة بين يديه حق الأداء ؟

من ذلك كله يتبين لنا مقدار خدمة الجندي، والمعلم للأمة ، وأنها بدونهما كليهما يذهب ريحها ، وتمحى صحيفتها من عالم الوجود ، نعم إنا نرى كثيرا من القبائل البدوية فيهم البواسل الصناديد ، والشجعان الأبطال ، ولكن البسالة وحدها لا تكفل لها أن تبلغ رتبة العيش الهنيء، وتبارى الأمم الراقية ، وكذا التعليم وحده لا يغني عن الأمة شيئاً ، ولا يدرأ عنها أذى المغيرين ، إلا جيش يهاب بأسه ، ويخشى بطشه .

أروني أمة بلغت مناها * بغير العلم والسيف اليماني ؟

ولكن ناشدتك الله هل تكافئهما الأمم على خدمتهما تلك مكافأة مرضية ، وتجزيهما جزاء حسناً ؟ كلا إنها تسويهما بغيرهما ممن لا ينصب نصبهما ، ولا يعاني مشاقهما ، بل تغمطهما حقهما ولا تقدرهما حق قدرهما .

إن حقهما لمهضوم فى كل الأمم ، لا يساوى عشر معشار خدمتهما ، إذ أنهما يتقاضيان مرتباً يسيراً ، لا يزيد عما يتقاضاه صغار

موظفى الحكومة ، ويتقدمان تقدماً بطيئاً بجانب تقدم غيرهما .

إذا ظفر الجندى فى ميدان الفتال،قُلد نَوطاً « ميدالية » ، أوبتعبير أدق : علق على صدره قطعة معدنية لاقيمة لها فى ذاتها ولا قدر ، تلك هى مكافأته عن كل ما يلقاه من الخطوب والأهوال.

ولا نركب متن الشطط إن قلنا إن بَلاءه[1] قد يضاف إلى غيره ، فيعزى الظفر والفوز إلى قائده ، فيكافأ دونه ، ويقنع هو من الغنيمة بالإياب .

مسكين أنت أيها الجندى ! تفتح البلدان بحد سيفك ، وتُخضع الأمصار بقوة بأسك ، ثم لاتعطى من أرضها قِيد[2] ظفر ، تغنم الغنائم ، وتُحرز الذخائر ، ثم لاتنال منها مثقال ذرة ، ولا تجسُر أن تمد يدك إلى حبة خردل ، تساق إلى ميدان الوغى سَوْق الخراف إلى المذابح ، لتشبع جوعة ملوكك المنهومين ، وتفتح لهم من الفتوح الواسعة الشاسعة مايعزّ به عرشهم ، ويُرهب جنابهم ، تبنى وغيرك يسكن ، وتكدُ وتكدح وسواك يجتنى ثمرة تعبك !

والويل كل الويل لقائدك إن خانه الظفر ، وأخطأه الحظ ، أوجنح إلى اختطاط خُطة لم ترسم له مقدراً فيها النجاح ، ثم باء بالفشل والخذلان ، ليس جزاؤه آنئذ إلا أن ينزع وِسامه، ويحطّم سيفه ،

---

(١) عمله ويضاف : ينسب وكذا يعزى (٢) قدر.

وبجرع من المنية كأساً دهاقاً[1] !!!

أؤنبئك عن مكافأة المعلم ؟ مكافأته إن حسنت نتيجته خطاب شكر لا يعدِل مابذله من جهد وعناء !

يدور المعلم طوال حياته فى دائرة من المناصب، لا يكاد يعدُو محيطها، فقد ترى قرينه الذى نشأ معه وزيراً خطيراً، وهو لا يزال بعدُ معلما، لا بل ترى تلاميذه قد تبوءوا أرائك المناصب السامية، وتربعوا فى دَستها[2]، وهو لم يزايل مِنَصته وسَبورته.

ليس المعلم إلا مِعبرا[3] يُقِلّ[4] فرقة من تلاميذه إلى ساحل التقدم والارتقاء، ثم يعود فيُبحر بغيرها وغيرها، وهو جائل فى بحر الشقاء، لا يجاوز شَطيه، ولا يبلغ مداه.

أرى حقاً قول من يقول « إن شئت أن تكون مثرياً فلا تكن معلماً » نعم فإنك إن طالعت صحيفة المثرين، وجدتها خِلواً من أسماء المعلمين، وأنّى يكون مثرياً وهو لا يصيب من الرزق إلا الكفاف ؟ حتى لقد يموت فلا يلفى أولاده ما يقوم بعيشهم من بعده، وأين هو من الطبيب أوالمِدْره أو المهندس أو التاجر مثلا، أولئك الذين يرقون فى سلم الثراء صُعُدا، ويسيرون فى طريق التقدم حثيثا[5] ؟

---

(١) ممتلئة (٢) الدست المجلس (٣) سفينة (٤) يحمل (٥) سريعاً.

ولكن صبراً وتأسياً ، فلئن فاتتكما المكافأة المادية ،لمكافأتكما المعنوية ومقامكما السامى لدى القوم ، وتبجيلهم إياكم ، وانطلاق ألسنتهم بشكركم ومديحكم ،أعظم أجراً ،وأنفس ذخراً .

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

يخال أغرار [1] الناس وأغفالهم أن النعيم والرفاهية ليست إلا فى أعطاف العيش الرغد ، والرزق الواسع ، وزخارف الحياة الدنيا من القصور المشيدة ، والدور الممردة [2] ، والفرش الوثيرة ، والنمارق [3] المصفوفة ، والزرابى [4] المبثوثة ، والأثاث النفيس ، والطعام الشهى .واللباس الفاخر ، والجياد الصافنات [5] ،والمركبات الشائقات ، والسيارات التى تسبق الرياح عدوا ، وتنهب الأرض نهبا ، وكثرة الخدم والحشم . ووفرة النَشَب [6] و لرياش ، وأضراب ذلك من أسباب الهناءة والصفاء ،

(١) جمع غر وهو غير المجرب وكذا الاغفال (٢) العالية (٣) الوسائد جمع نمرقة (٤) البسط الفاخرة جمع زربى والمبثوثة المبسوطة (٥) التى تقوم على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة وهى صفة محمودة فى الخيل (٦) المال كالرياش

هكذا يظنون ، وبذا تحدثهم نفوسهم ، وتوحى إليهم أحلامهم ، فيغبِطون [1] الأغنياء ، ويعتقدون أنهم نالوا من السعادة قسطا موفورا ، وضربوا فيها بسهم صائب ، وتجيش [2] صدورهم شوقاً إلى نَهلة من ذلك المورد العذب ، يبلون بها غُلّتهم ، ويشفون عِلة إمحالهم [3] .

ولو كشف لهم عنهم الغطاء ، وهتكت دونهم هاتيك الحجُب ، لقنِعوا بما هم فيه ، ولم يرضوا به بدلا ، ولخفضوا من زَفَراتهم ، وخففوا من غُلَوائهم .

أجل إنهم قد يكونون — على نعيمهم وترفهم — أشقى الناس وأمرهم عيشاً ، بماذا ؟ بعقولهم وأفكارهم وآمالهم التى تُكنها جوانحهم ، وهذا قول مجمل نفصله بعض التفصيل .

العاقل كلما خطا خطوة فى طريق هذه الحياة ، تكشفت لهُ خُطورتها ، وتجسدت أمام عينه وعورتها ، فينظر إليها نظر المستريب بها ، المتحذر من بطشها وفتكها ، إذ يعرف حق العرفان أن المطمئن إليها كالراكب على رَوق [4] الظبي ، فيحسب لكل أمر حسابا ، ويعد له عدته وعتاده ، ويُعمل الحيلة فى جلب النفع ، واتقاء الضر .

---

(١) غبطه تمنى نعمه دون أن يريد زوالها (٢) تغلى (٣) فقرهم (٤) قرن .

العاقل لا يرضى بخسيس المنزلة ، ولا يقنع بوضيع المرتبة ، فإذا ما نال مرتبة حدَت [1] به همته إلى تطلب ما هو أرقى منها ، وصاح بنفسه صائح إلى الأمام ، إلى الأمام ، فيحُث مطيته ، ويُجد السعي وراء أمنيته حتى يدركها ، وهكذا يظل حياته كرة تتلقفها يد الآمال ، ولو كلفته ما لا قِبل [2] له باحتماله ، إذ قد جعل شعاره [3] قول القائل :

لا تقنعن ومطلب لك ممكن * فإذا تضايقت المطالب فاقنع

العاقل حي الضمير ، يقظ الشعور ، إذا ما بدرت منه بادرة ، أنبه ضميره ، ووخزه وخز الإبر ، لاخوفا من عقاب ، بل استفظاعا لجرمه ، ونكيرا لذنبه ، فيظل بين عذاب نفسي ناصب . وألم فكري يُضني ، كلما خطرت بباله تلك الهفوة ، كاد فؤاده يتصدع ، وروحه يفيض ، وكم من أناس قَضَوا [4] من توبيخ الضمير .

العاقل لا يتطلب الحياة لنفسه وحده ، بل لأسرته وأمته بأسرها ، فتراه مؤاسيا أقرباءه ، واصلا رحمه ، عنيا بشؤونهم ، حاملا لأثقالهم ، يتوجع للبائس ، ويبكي مع المحزون ، ويرثي

(١) من حدا الابل أي ساقها (٢) لا طاقة (٣) أصله الثوب يلي شعر الجسد (٤) ماتوا.

للمُعوز ، ويساعد المقْتِر [1] ويعلم الجاهل ، ويعالج العليل ، ويدفع عنهم كل خطب جليل ، وكأنه قد نزل به من الضر والبلاء ما نزل بهم ، يتجافى جنبه عن مهاد الراحة فى سبيل مخترع يفيد الأمة ، أو مشروع ينهض بها ، أو مقترح يفيدها ، أو مؤلَّف ينير عقولها .

ينظر إلى نفسه ، فيراها متفيئة ظلال النعيم ، وقومه فى رِبقة [2] الذل والعَسف مغلولين ، فتأبى عليه نفسه الكبيرة ، وهمته الشماء ، أن يستأثر [3] دونهم بذلك النعيم ، فيلفِظه لفظ النواة ، ويطرحه طرح القَذاة ، [4] ويُعمل الفكر ، ويضنى البدن فى تفدية وطنه ، والترفيه على أمته ، مستعذبا فى ذلك العذاب ، غير حافل بما يتجشمه من المشاق والأهوال ، ولا تقر عينه ، وينعَم باله ، أَو يرى أمته رائعة فى بُحبوحة [5] الرفاهية والنعيم .

العاقل يقطع مراحل الحياة ، وهو لا ينفك قلق الفؤاد ، مضطرب الخاطر ، شَتيت العقل ، يموج فى بحر من الشواغل ، إن قام أو قعد ، أو مشى أو تنزه ، أو استراح أو نام ، لا يزايله ذلك الخاطر ، ولا يفتِر عنه لحظة عين .

إن دَلَف [6] إلى فراشه تقفته جيوش الأفكار ، فطردت

(١) الفقير (٢) الربق حبل فيه عدة عرى يشد به البهم كل واحدة ربقة (٣) يستبد (٤) مايقع فى العين (٥) بحبوحة المكان وسطه (٦) دلف مشى رويدا وقارب الخطو والمراد ذهب .

عن مقلته الكرى[1] ، وأرسلت عليه وابلاً من صواعقها ، فيطويها ليلة نابغية[2] ، يقارعها[3] وهو لها مغلَّب ، ويصادمها وهو لا يطيق لها صِداما ، أونام ، سلت عليه سيوفها الأحلام ، فحمته[4] النوم ، ومنعته القرار ، أوقام ، احتلت بؤرة عقله الهواجس ، وما النهار بأخف وطأة من الليل !!!

فقل لى بربك كيف تطرق السعادة لذلك المرء بابا ، وأنَّى تجد إليه سبيلا ، وقد أحدق به ذلك الشقاء العقلي إحداقا لا يجد منه مهربا ، ولا يلفى منفذا ؟

أم كيف يستطيع أن يتنعم بذلك النعيم المادى ، وقد نهب التفكير كل عقله ، وامتلك التأمل فيما نيط به ناصية فكره ؟ إنه ليروح ويغدو ، والتفكر شغله الشاغل ، ويأكل اللقمة وقد لا يدرى أين مساغها[5] ويعيش مهزولا ناحل الجسم : شاحب اللون ، فاقد أثمن موهبة ، وأجل نعمة ، تلك هى نعمة الصحة والعافية التى يفقِد المرء بفقدها كل نعيم فى الحياة .

دونك مثلا ملوك الأمم وكبراءها ، وساسة الشعوب وقادتها

---

(١) النعاس (٢) نسبة إلى النابغة الذبيانى ولياته المشار إليها بأحد قوليه:

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع

(٣) يضارب والمغلب المغلوب مرارا (٤) منعته (٥) مكان بلعها .

ترهم ونعيمهم وارف[1] الظلال ، ضافى[2] الذيول، أشقياء متعبين، قد حيل بينهم وبين التمتع بمـا يشتهون ، إذ حملوا من أعباء الأمة ماتشفق من حمله الأطواد[3] ومن أجل ذلك قالت العرب فى أمثالها قولة حكيم « سيد القوم أشقاهم » .

أما ذلك الجاهل فيدع الأمور كما تجرى به المقادير ، لا يحسب لأمر حسابا ، ولا يقيم له وزنا ، ولا يأبه[4] لما يروعه به الدهر . ولا يجهد نفسه فى التحرز من مصائبهِ ، بل سواء عليه أدار بالمكروه أم بالمحبوب ، وافاه بمنيته أم مناه ،

هو ذلك الذى يرضى بخفض العيش . فلا يتطلع إلى أرقى من منزلته ، ولا يركب بنفسه مراكب المخاوف ، ولا يسلك بها مفاوز[5] المخاطر فى طلب المعالى ، إذ غايته الوحيدة التى يجرى وراءها فى هذه الحياة هى القوت .

هو ذلك الميت الشعور ، الذى يقترف الجرائم المنكرة فلا يهتز لها فؤاده ، ولا تألم منها نفسه ، وكأنه لم يأت أمراً إدّا.[6]

هو ذلك الذى لا يتطلب الحياة إلا لنفسه ، ولا يُعنى بالتفكير فى أمر غيره ، لا يتكاف الحـدَب[7] على قريب ،

---

(١) ممتد (٢) سابغ (٣) الجبال العظيمة (٤) لا يحفل (٥) جمع مفازة وهى الفلاة لا ماء بها (٦) فظيعاً (٧) العطف.

أو الترفق لبائس محزون ، ولا يجيب داعى الأمة إن نادته ، ولا يشد أزرها فيما ينهض بها ، وسواء عليه ارتقت أمته أم انحطت ، عمرت بلاده أم خربت .

هو ذلك الذى يطوى صحائف العمر ، وهو قرير العين ، ناعم البال ، مستريح الضمير ، لا تستطيع الأحزان بحولها وطولها أن تجد إلى فؤاده مسلكاً ، أو تنال منه نيلاً ، كل أوقاته صفاء ، وكل ساعاته سرور ونعيم .

تراه فى فقره مُدقِع[1] ، وعيش ضنك ، ورزق أضيق من سَم الخِياط[2] ، يفترش الثرى ويتوسد الجنادل ، ويأوى إلى كوخ حقير ، ويرتدى الأسمال[3] والأطمار ، ويطعَم ما تعافه[4] البَهم ، ولكنه من راحة العقل واطمئنان الضمير ، فى نعيم مقيم وسعادة أبدية .

بل إنه ليثْمَل[5] بخمر الآمال الموهومة ، ويسبح فى بحار الأحلام اللذيذة ، ويبنى على قاعده الخيال صروح الأمانى الواسعة ، ويُطمع نفسه بنيل المحال ، فيرفه عليها ، ويروح عنها ، ويوردها مناهل الدعة والهناءة ولكن لا غرو فما لذة العيش

---

(١) ملصق بالدقعاء أى التراب (٢) ثقب الابرة (٣) الثياب الخلقة وكذا الاطمار (٤) تكرهه
(٥) يسكر .

إلا للمجانين ، وما أصدق قول المتنبى .

تصفو الحياة لجاهل أو غافل   عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

وأى امرئ أسعد منه ، وهو ذاك الذى ارتاح عقله ، فزكا[1] جسمه ، وقوى بدنه ، وعاش يرفُل[2] فى ثياب الصحة والعافية ؟

أى الفريقين خير عيشاً ، وأسعد حظاً ، العقلاء المنعمون ، أم الجهلاء المعدمون ؟ إنك إن تسل الأولين ، أى العيشين تؤثرون ؟[3] يجيبوك بملء فيهم ، إنا نؤثر أن نعيش على خَصاصة[4] مرتاحى الضمير ، على معيشتنا تلك معيشة البَذَخ[5] بين شقاء العقل ، واضطراب النفس .

سبحانك اللهم وهبت لنا العقل ليكون نبراساً[6] نستضئ به فى ظلمات هذه الحياة ، ومميزاً لنا عن سائر الحيوان ، فكانت تلك المنحة السنية علة شقائنا ، وداعية بلائنا ، بيدك الأمر ، تتصرف فى عبادك كيف تشاء ؟

---

(١) نما (٢) يجر ذيله منحترا (٣) تفضلون (٤) فقر (٥) العلو والرفعة (٦) مصباح .

خطبة

فى الحث على مساعدة قوم نكبهم الحريق

إليكم يا نصراء الإنسانية وحُماة حُرَمها ، وبُناة دعائم المروءة ، وكُماة [١] حلبتها ، إليكم يا كُفاة العُفاة ، [٢] وموئل البائسين ، وأمل المنكوبين ، إليكم يامن يُفزع إليهم فى الملمات ، ويُستصرخون [٣] إذا عرت الخطوب المدلهمات [٤] ، ومن يكشف بعد الله عن المكروب كربته ، والمغموم غمته .

إليكم أسوق الحديث ، ومن أيديكم الندية أستدر وابل الإحسان ، لخير ما يأتيه ذوو العُرف من عمل يؤجرون عليه فى العاجلة والآجلة ، أستنديكم [٥] لخير عمل ينفق فيه المحسنون . ويوفض [٦] إليه العاملون ، ذلكم العمل هو المسارعة إلى نجدة إخوانكم . . . الذين ناوأهم [٧] الزمان ، وقلب لهم ظهر مِجَنّه [٨] وأرسل عليهم شُواظا [٩] من نار غضبه .

دهمت جيوش الحريق أولئكم القوم ، وهم آمنون

---

(١) جمع كمى وهو الشجاع (٢) طلاب المعروف جمع عاف (٣) يستغاث بهم (٤) من ادلهم الظلام إذا كثف واسود (٥) أطلب نداكم (٦) يسرع (٧) عاداهم (٨) الترس أى تنكر لهم (٩) الشواظ اللهب لا دخان فيه .

فى أسرابهم [١] مطمئنون فى دورهم ، فرحون مرحون ، لايحسبون لعاديات الدهر الخؤون حساباً ، ولا يعلمون ماخبأته لهم يد المقدار ، من فوادح الأخطار ، دهمتهم على غِرة منهم ، فغشيهم من الفزع والوجل ما غشيهم ، جَمُدت الدماء ، وقيدت الأقدام ، وزاغت الأبصار ، وجاشت [٢] النفوس ، وطارت الألباب شَعاعا [٣] ، وذَهل كل عن نفسه ، وعزَبت عنه الحيلة ، وعزت عليه النجاة ، وترى الناس سُكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنه الحريق انقض عليهم انقضاض الأسد الضارى على الحيوان المستضعف ، فأنشب فيهم أظفاره ، وأعمل فى جسومهم أنيابه ، لم تأخذه رأفة بوليد مبغوم [٤] النداء ، ولا حنوّ على هَرِم حنت قناته [٥] الخطوبُ ، ولم يلن عِطفه [٦] تضرع ولا ابتهال ، ولم يحُكْ [٧] فى فؤاده أنين ولا زفير ، ولا نحيب ولا زئير ، ولم يغادرهم حتى جعلهم كليلة ليلاء [٨] ، غُدَافية الإهاب ، حالكة الجلباب .

فغَر فاه فالتهم كل ما حوت الديار ، من مرتخص وغال ، ذهب بالطارف [٩] والتِلاد . وأودى بالنشب والرياش ، والذخائر والأثاث ،

---

(١) جمع سرب وهو النفس (٢) ارتفعت من الحزن والفزع (٣) متفرقة (٤) لا يفصح فى منطقه (٥) قناة الظهر (٦) ثنى عطفه : لوى عنقه تكبرا (٧) يؤثر (٨) هى أشد ليالى الشهر ظلمة وغدافية نسبة الى الغداف وهو الغراب والاهاب الجلد (٩) المال المستحدث والتلاد القديم الاصلى .

فلم يذر سَبَدا [١] ولا لَبَدا .

اندلع [٢] لسان اللهب فامتد إلى ما شيدوه من قصور شامخة ، وصروح باذخة ، فتبرها [٣] تتبيرا ، ودمرها تدميرا ، وقلبها رأساً على عقب ، إذا رأيت ثَم رأيت أطلالا دارسة ، ورسوماً [٤] طامسة ، ونقوضاً [٥] مكدّسة ، وعروشاً خاوية [٦] ، وخَرِبات خالية، تعمرُها الذئاب العاوية ، وينعق فيها البوم والغربان .

أمست خَلاء وأمسى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد [٧]

اندع هؤلاء الذين قضَوا نحبهم جانباً ، فقد سحب عليهم العَفاء [٨] ذيله ، وأراحهم الموت من رَوْعات الحِدثان ، وتصاريف الزمان ، وحسبهم ما نالهم وكفى ، ولننظر إلى مصير هؤلاء القوم الذين أفلتوا من مخالب تلك الغول الكاسرة ، أو أولئك الذين غادرتهم وفيهم ذَماء ، ماذا نرى ؟ نرى قوماً قد نُبذوا بالعَرَاء [٩] ، وغدَوا يفترشون تراب القفر ، ويأوون إلى الكهوف والخِصاص ، ويقتاتون بنبات البر ، ويلبسون الأسمال والأطمار .

---

(١) أى لا قليلا ولا كثيرا (٢) خرج (٣) أهلكها (٤) بقية آثار (٥) أبنية منقوضة (٦) ساقطة (٧) هو نسر كان لقمان بن عاد وكان قد عمر كثيرا (٨) التراب أو الامحاء (٩) الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

نرى قوما قد هوَوا من حالق النعيم وشاهق العز ، إلى وهدة البؤس والشقاء .

نرى قلوبا منفطرة ، وعيونا باكية ، وقروحا دامية ، ومرضى بائسين ، يقلبون أجفانهم فى الآفاق ، باحثين عن بر رحيم ، أو طبيب مسعف يأسو كلومهم ، ويضمد جراحهم ، ويخفف آلامهم ، فلا يُلفون ، يستصرخون ، ولا من يجيب نداءهم ، ويستغيثون ، ولا من يفرج كربهم . ويذرّفون الدموع ، علهم يطفئون بها نار حروقهم . فلا نزيدها إلا تأججا وسعيراً

نرى أسرا عدة قد شتت شملها . وانطفأ سراج هناءها ، فمن صبية يتامى ، ونسوة أيامى [1] ، وشيوخ عجزة ، ومثرين أضحوا مُرْملين [2] ، وأعزاء أصبحوا أذلاء .

نرى حالا تصهَر الافئدة ، وتفتت الأكباد ، حالا تحبِس المنطق ، وترسل الدموع وابلاً مدراراً ، حالا يرف لها النسيم ، ويرق المرور [3] ، وتشيب من هولها الولدان ، وينفتق لسان العي مستمطراً لهم من الرحيم الرحمن غوادى [4] الرحمات ، حالا تكاد السموات يتفطرن منها ، وتنشق الأرض ، وتخِر الجبال هَدّا [5] ، حالا

(١) جمع أيم وهى من لا زوج لها (٢) محتاجين (٣) المحسود (٤) سحائب (٥) مهدودة

تُصم السميع وتعمى البصـــــير ويسأل من مثلها العافيه

الآن وقد علمنا ما صار إليه أولئكم القوم ، يجب علينا ألا ندخر وسعاً في تخفيف ويلاتهم ، ومشاطرتهم أرزاءهم ، وانتشالهم من وَهدة ذلك الموت الزُّؤام [1]

يجب علينا أن نتكاتف على إحياء تلك النفوس البائسة ، وأن نسَرى عنهم ما نزل بهم من الضر والبلاء ، ونأسو ماجرحه الدهر ، ونصلح ما أفسدته يد الايام ، ونقيم مانقضته أعاصير الحادثات .

يجب علينا أن نسارع إلى إنقاذهم قبل أن يسقطوا بين شفار [2] اليأس ، وعوامل [3] الأجواء ، من برد قارس ، وإهمال قتال ، وإن ذلك العمل الشريف ليس علينا بعزيز ، إذا سمحت أنفسنا بالبذل ، وسخت بالعطاء .

أيها السادة ، عار وشَنار [4] عليكم أن تجروا ذيول النعيم الضافية ، وتشربوا كئوس السرور الصافيه ، وتعرض عليكم لمائد الأغذية رأيتموها عرضاً — وقد تناولها أنفسكم وترفضها

---

(١) [illegible] ، هو صدر
(٢) [illegible]

رفضاً — وإخوانكم في الدين والوطن واللغة والجنس يتضوّرون[١] جوعا ويتأففون[٢] عُريا.

سادتي، إن الطفيف[٣] إن نقص منكم فلن يَضيركم[٤]، وإن سَجلا[٥] يملأ من بحر ثَرائكم الزاخر لن يُنفده، ولكنه يحيي نفوسا ميتة، وينعش أرواحاً هالكة، فلا يعز عليكم أن تجودوا عليهم بما فضل عنكم.

ويلاه ويلاه، لا تجمعوا عليهم مصيبتين، وتنزلوا بهم نازلتين، ابتلاءهم وانصرافكم عنهم!

لقد ضاع كل أمل لهم في الحياة إلا بقية أمل فيكم، فاسألكم بالله إلا ماحققتم هذا الأمل، وصدقتم ذلك الرجاء، وإن ما نعهده فيكم من الكرم الحاتمي، والأريحية[٦] للمكارم، والعواطف الشريفة، ليغنينا عن أن نستفز هممكم. ونستحث نخوتكم، ونستنهض مروءتكم، وما إخالكم إذا رأيتموهم والنار تأكلهم إلا مُلقين بأنفسكم في اللهب، مصطلين بلظاه، غير هيابين من العَطب[٧]، حباً في نجاة تلك الأرواح.

ما المال إلا حسنة من حسناته تعالى، أعطاكموه لتنفقوا

---

(١) يتلوون من وجع الجوع (٢) يتضجرون (٣) القليل (٤) يضركم (٥) دلوا (٦) أحدثه الاريحية ارتياح للندى (٧) الهلاك.

منه فى سبل البر والإحسان ، من تنفيس كربة . أو إنقاذ من تهلكة ، أو إنهاض من عثرة ، أو تجديد مجد دارس ، فما أجدركم أن تنفقوا فى هذا السبيل.

أفيضوا على إخوانكم كما أفاض الله عليكم ، فوربى ليحفظن لكم ذلك الصنيع ، ولينقشن لكم على صفحات قلوبهم ذكراً جميلاً ، ومديحاً عاطراً يتغنون به مدى الأعمار .

سارعوا سارعوا إلى إنجاد أولئك البائسين ، كى تنالوا رضا المولى وثوابه الجزيل ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله .

من ذا الذى يقرض هؤلاء المنكوبين قرضاً حسنا ، فيضاعفه الله له أضعافاً مضاعفة ، ويؤتيه من لدنه أجراً عظيما ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وللفتى من ماله ما قدمت　　　يداه قبل موته لا ما اقتنى

الترف والاملاق كلاهما مفسدة

الترف والإملاق كلاهما مقبرة للفضيلة ، مقوض لدعائم المروءة ، ثالم لشرف المرء ، مغريه باجتراح [1] السيئات ، مرديه فى بؤرة الموبقات ، يُحيل المَلَك الكريم شيطاناً رجيما ، ويرد الزكى النفس الطاهر الأخلاق خبيثا لئيما .

الترف طَلِبة مَشوقة [2] تصبو إليه النفوس ، وتشرئب له الأعناق ، ويشتد فى طلبه الطالبون ، ولو أنهم تبينوا حقيقة أمره ، لنكصوا [3] على أعقابهم منه هاربين .

الترف شراب سائغ عذب ، وطعام شهى حلو المذاق ، بيد أن حلاوته ممتزجة بسم ناقع ، فلا يكاد ذائقه يستلذ طعمه ، حتى يسرى ذلك السم فى جسده فيودى بحياته ، مثله كمثل الخُفاش الأمريكى ينحط على النائم وقت الهاجرة [4] ، فيمتص دمه ، ويروح أثناء ذلك بأجنحته العريضة على وجهه ، ليجلب له الهواء البارد ، كى يشتغل بتلك اللذة عن الشعور بألم امتصاص دمه !

يقول الله عز وجل فى كتابه العزيز « كلا إن الإنسان ليطغى

---

(١) إتيان (٢) يشتاق إليها (٣) رجعوا وأحجموا (٤) نصف النهار وقت اشتداد الحر .

أنْ رآه استغنى » ويقول أيضاً « ولو بسَط اللهُ الرزقَ لعباده لبَغَوا فى الأرض، ولـكن يُنزِّل بقَدَر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » وهو قول صدق لاشية [1] فيه ولا مِراء، وذلك أن النفس أمارة بالسوء، نزّاعة بجبلتها إلى الشر والهوى، إلا أن الفقر كثيراً ما يكبح جماحها، ويحول بينها وبين مُبتغاها من الشهوات والملاذ، ويميل بها إلى الاستكانة [2]، فإذا ما شبعت وامتلأت، ووفرت لديها النعمة، وأُغدق [3] عليها البر، قويت وبطشت، وعتت واستكبرت، وذكا [4] من نار شرورها ما أخبته [5] ريح الفقر.

هنالك يُحدِث للمرء ما هو فيه من النعيم والترف مَخيلة [6] وزهوا، فيثنى عِطفه، ويميل سالفته [7]، ويرى أنه قد صار فوق العالمين، وأنه أوتى ملك سليمان، وجبروت فرعون، ومال قارون، ثم تأخذه العزة بالإثم، فيكفر بأنعم الله، ويجحد آلاءه [8]، ويتنكب [9] عن الدين، ويزدرى شعائره. بل ينتهك حُرُماته، ويستحل محرماته، طلباً لمرضاة هواه، يرقع دنياه بتمزيق دينه،

---

(١) لا كذب (٢) الخضوع (٣) من أغدق المطر كثر قطره (٤) اتقد (٥) ما أطفأته (٦) كبرا (٧) ناحية مقدم العنق (٨) نعمه (٩) يميل ويعدل.

رامياً إياه بأنه جامد لا يتفق مع مبادئ المدنية ، ولا يتسع لأصول الحضارة ، وما ذاك إلا لأنه وقف حجر عثرة فى سبيل مآربه الدنيئة ، ونياته الخبيثة !!!

يخلع رداء الدين ، وقد خلع معه رداء العفة والحياء ، والتأدب والاحتشام ، فيُستهتَر [١] بالشهوات ، ويعكف على اللذات ، ويسلك سبل الغى ، وينقاد لشيطان الضلال ، لا يخشى لومة لائم ، ولا يبالى نقد ناقد ، ومن جاهر المولى بالعصيان ، لم يستح أن يجاهر به العباد .

ومما يزيد فى فتنته ومِحنته ، أن يلتف حوله زُمرة ممن لا خَلاق [٢] لهم ولا عمل ، يتزلفون له ، ويمُتون [٣] إليه بحبل الوداد ، ويزعمون أنهم متفانون فى راحته ، ساهرون على خدمته ، فيوطئون له مهاد الضلال ، ويُعَبدون [٤] أمامه طرقه ، يقودونه إلى المواخير والحانات ، ويزينون له معاقرة الصهباء [٥] ، موحين إليه أنها تجلو صدأ الأفئدة ، وتنعش الأرواح ، وتذبح الأتراح ، فيجرَع منها كما يجرع الصديان من الماء الزُلال ، حتى إذا لعبت برأسه نَشوة [٦] الخمر ، يمموا به موائد القمار ، مغريه بما سيحرزه

(١) المستهتر بالشىء المولع به لا يبالي بما قيل فيه (٢) النصيب الوافر من الخير (٣) يتوسلون (٤) يمهدون (٥) الخمر (٦) سكرة .

من جزيل الربح ، فيقامر فلا يلبث أن يُقمر[١] ، فيُسقَط فى يده[٢] ، فيشدون عضده ، وينشطون عزمته ، قائلين إن اللعب سِجال[٣] ، مرة لك ومرة عليك ، فالعب ثانية حتى تسترجع ما خسرت ، فيعيد الكرة فيكسِب بعض ما قد فقد ، فيثمل بخمرة الفوز ، ويواصل اللعب حتى يسترد البقية ، فلا يعتّم[٤] أن يخسر ، وهكذا لا يزال بين ربح وخسران ، حتى تنفَد سهام جَعبته[٥] ، فيخرج خاوىَ[٦] الوِفاض ، بادى الإنفاض[٧] ، متعثراً فى ذيل الفشل ، فيسارعون إليه ، ويقرضونه ما شاء إلى أجل ، ويؤمون به الملاهى والمراقص ، حيث يرفّه عن نفسه ما نزل بها ، حيث تداس الفضيلة ، وتتجلى الدَعارة[٨] بأقبح مظاهرها ، حيث يقع فى شراك الغانيات اللاتى يسلبن عقله ، ويمتصصن دمه ، وهنا نسدل الستار على تلك المخازى ، فالقلم يخجل عن تسطيرها .

هكذا يفنى فحمة ليله ، حتى إذا ذَر شارق الصبح ، قفل راجعاً إلى منزله ، وهو لايدرى الطريق إليه . قفل خفيفَ الكيس ، دنس الذيل ، فاقد الرشد .

---

(١) يغلب (٢) أى ندم (٣) يقال الحرب بينهم سجال أى سجل (دلو) منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء (٤) فلا يلبث (٥) كنانة السهام (٦) فارغ والوفاض جمع وفضة وهى وعاء من جلد يحمل فيه الراعى زاده والمراد كيسه (٧) أنفض الرجل ذهب ماله (٨) الخبث والفسوق .

كنا معشر الشرقيين قبل اليوم لا نكاد نرى للعزوبة بيننا أثراً ، أما الآن وقد ارتطمنا [١] فى حَمأة الترف ، فقد أضحى جل مترفينا يؤثرون أن يعيشوا أعزاباً ، يساكن أحدهم خليلة يستمتع بها حتى يقضى منها وطرا ، ثم يغادرها إلى أخرى وهلم جرا ، وإذا ساءلتهم عما يضطرهم إلى تلك الفَعلة الممقوتة ، أجابوك بأن داء التهتك قد فشا بين النساء ، وأن تيار فسادهن قد طغى وطمى ، وأنك إن رُمت زوجة صالحة ، كنت كمن يتطلب فى الماء جذوة نار .

على رِسلكم [٢] أيها المدعون ، تعالوا نسائلكم من ذا الذى بذر فيهن بذور السوء . وجرأهن على خلع نقاب الحياء ؟ تالله إنكم أنتم الذين أفسدتموهن ، وأولجتموهن أبواب النقائص والمثالب [٣] ، ترى المرأة زوجها قد صدَف عنها وانهمك فى لذاته ، وبات يقضى لياليه بمنأى عنها بين القِداح [٤] والأقداح ، والَحباب [٥] والأحباب ، فتصبر على مضض ، وتعلل النفس بأن تلك سحابة صيف عن قريب تَقَشع ، وأنه سوف يثوب [٦] إلى رشده ، ويرجع عن باطله ، حتى ينفد صبرها ، وينقطع رجاؤها ، فتدوس

---

(١) ارتطم وحل فى أمر لا يخرج منه والحمأة الطين الاسود المنتن (٢) تمهلوا (٣) المعايب (٤) سهام الميسر والأقداح كئوس الخمر (٥) فقاقيع الخمر (٦) يرجع .

العفاف بقدميها ، وتمزق ثوب تصونها . ولا غرو فكما تدين تدان .

أنتم أنتم الذين تفتق لكم عقولكم المتشبعة بسموم الخبائث عن حيل شيطانية ، تستهوون [1] بها الحرائر العقائل [2] ، وتوقعونهن فى حبائلكم ، ثم يخشين أن يفتضح أمرهن ، ويثلم شرف أسرهن ، فيعمدن إلى الانتحار ، أو يسلكن سبل البغاء !!

ماذا عليكم أيها المترفون لو أتيتم من تشتهون من النساء فى حل ، وأنتم فى بسطة من العيش ، ودينكم يخول لكم أن تجمعوا بين أربع زوجات ؟ ولكنه الترف الممقوت حبب إليكم معيشة السفاح والفسوق والعصيان .

يتكالب [3] المترف على الملاذ ، ويندفع فى الشهوات ، اندفاع الطائش النزِق [4] بل الطفيلى الشره ، فيبسط يده كل البسط ، ويبذل عن سخاء شائن ، ويبعثر ثروته ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يمضى عليه رَدَح [5] من الزمن ، حتى يُنزَف [6] قَليبه [7] ، ويودى طارفه وتليده ، فيركب طبقاً عن طبق [8] ، ويصير إلى حال يضطر معها إلى مسألة اللئام ، وإراقة ماء محياه .

سل هؤلاء الذين يرزحون تحت أثقال الديون الفادحة ،

---

(١) تستميلون (٢) جمع عقيلة وهى الكريمة (٣) يتواثب (٤) الخفيف الطائش (٥) وقت طويل (٦) نزف ماء البئر نزحه كله (٧) البئر (٨) حالا بعد حال .

ماذا الذى زج بهم فى محبِسها ؟ ينبئوك أنه هو الترف الذى جر عليهم الحرَب [1] والإفلاس .

ياالشقوة الأمة وتعسها إن ابتليت بحاكم مترف، يجيب داعى الهوى ، ويلبى نداء الشيطان ، إنه يتذرع بحوله وطوله إلى ابتزاز أموالها ، واستنزاف ثرائها ، كى يرضى نفسه وهواه، فيرديها فى هوة من الدين عميقة لاتستبلّ [2] فيها نفسها، ولا تقوى على إصلاح شؤونها ، فتغل يدها عن العمل . وتكثر فيها الفتن والثورات، ويرى العدو الفرصة سانحة فينقض عليها، ويطوق جيدها بطوق الرق والاستعباد .

ناهيك بما يجره الترف على المرء من الخسارة التى لاتعوض، تلك هى فقد صحته ، وذهاب رونقه ، وما يعانيه فى شيخوخته من الوهن والعلل ، من جرّاء ما أتاه فى عنفوان شبابه ، على أن البلية ليست قصراً عليه وحده ، بل تعدوه إلى نسله . فيخرج للأمة أولاد ناحلين مهزولين لا يستطيعون النهوض بأعباء الحياة.

وعدا ماسلف فالترف يَثنى عزم صاحبه عن العمل ، ويغريه بالتقاعد والكسل ، إذ يرى نفسه فى سعة من الرزق ، فلا يكلفها مؤونة الكد والكدح ، ولا يَفسِرها [3] على خوض غمار السعى،

---

(١) الخسارة (٢) لا تبرأ (٣) يكرهها

وهكذا يقطع أولئكم القوم أعمارهم ، وهم لا يفهمون من معنى الحياة إلا تلك اللذات البهيمية ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، أولئكم القوم كَل ثقيل على عاتق الأمة ، وعضو أشل فى جسمها ، لا يسدون إليها منفعة، ولا يؤدون لها خدمة ، وإن ربا عددهم فى أمة فقد حق عليها العفاء .

فتش عن أخلاق المترفين ، تجد الترف قد أخبث نفوسهم ، وملأ صدورهم مكراً وخلابة [١] ، تجده قد أمات فيهم عاطفة الحمية والأنفة ، وفل منهم شوكة الشجاعة ، وأفقدهم شمم الرجال ، إذا أغير عليهم وقفوا مبهوتين متبلدين [٢] ، لا يعاونهم مرباهم الناعم على الوقوف فى وجوه الأعداء ، والذب عن حمى الأوطان .

الترف داء عضال ماسرى فى جسم أمة إلا نخرت [٣] عظامها ، وآذن نجمها بالأفول [٤] ، وغصنها بالذبول ، ها هو التاريخ أعدل شاهد ، ينبئنا أن دولة الرومان الواسعة الأطراف الشاسعة الأرجاء ، لما أخلدت إلى الراحة ، ومالت إلى الترف ، وانغمست فى النعيم ، تفرقت كلمتها ، وركد [٥] ريحها ، وتلك أمة العرب ظلت محتفظة بملكها الكبير صدر الإسلام، لقربها من بداوة الجاهلية ، فلما جنحت فى العصر العباسى إلى الترف

(١) خداعا (٢) التبلد ضد التجلد (٣) بليت وتفتتت (٤) الغروب (٥) سكن .

وألقت جنبها على مهاد الدعة ، صارت إلى ما صارت إليه من الضعف والاضمحلال ، تلك سنة الله فى الأمم المترفة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، « وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مُترَفيها ففسَقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً »

وجماع القول أن الترف مَخبثة للنفوس ، منقصة للأخلاق ، منهكة للدين ، مذهبة للعقول ، مفسدة للصحة ، متلفة للمال ، مكسلة عن الأعمال ، مجبنة عن الإقدام ، مهرمة للأمم .

* * *

أفضنا فى عذل المترفين ، وتعداد مثالب الترف ومساويه ، ولكنا نرى أن له صِنوا [1] فى الإفساد ، وأخا أسوأ منه أثراً فى الإضلال والتغرير ، ذلك هو الإملاق ! ! !

قد يقوى المترف على مغالبة أهوائه ونزغاته ، ويثنى شكيمة نفسه عن مقارفة الفواحش والمآثم ، ولكن الفقير مَسوق بسواق غشوم [2] إلى ورود مستنقع الخبائث ، والجرى مع تيار المعايب والشرور .

أَرأَيتَك [3] ماذا يصنع هذا المُعيل [4] الذى قد عضه الفقر

---

(١) الاخ الشقيق وأصله أنه إذا خرجت نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل منهن صنو (٢) ظلوم (٣) أخبرنى (٤) الكثير العيال .

بنابه ، ودرجه اليؤس فى ثيابه ، وضاق باحتمال المَتربة[1] صدره ، وندعنه صبره ؟ ماظنك به وهو يقضى عامة نهاره طاويا منقبأعن عمل يَمير[2] منه عياله . فيأبى عليه نحسه إلا أن توصد أبواب الارتزاق فى وجهه ، ثم يأوى إلى بيته مجهوداً لاغبا ، تكاد تثب أحشاؤه من فيه ، فإذا صبيته يرتقبون أوبته ارتقابهم ليلة العيد ، يتوقعون أن يأتيهم بزاد يسد رمقهم ، فما هو إلا أن يبصروه صفر اليدين حتى يتضاغَون[3] ويُعولون . هنالك تضيق عليه الأرض بما رحبت ، حتى يراها أضيق من سم الخياط ، ولكنه يتماسك ويتمالك ، فيعللهم بتَعِلة[4] حتى يأخذهم النعاس ، ويبيت هو متململاً تململ السليم[5] حتى إذا آذن قَذال[6] الليل بالمشيب ، خرج مع البازى عليه سواد[7] ، متسللاً من أولئك الغرماء ، إذ ليس فى يده أن يوفى مالهم قبله من الديون ، وهكذا يظل حينا من الدهر ، يغالب القدر ، ويصابر الأيام ، حتى يحتويه اليأس ، فيعق الفضيلة ، ويطرح رداء الاحتشام ، ويركب سبيل السِفلة الأوغاد ، فيسلب وينهب ، لايبالى أ كل سُحتاً[8] أم غصباً ، أَصاب رزقه من من وجهه ، أم من غير وجهه ، مادام قد أشبع تلك البطون ،

(١) الفقر (٢) يمون (٣) يصيحون (٤) مايتعلل به (٥) الملدوغ (٦) القذال مؤخر الرأس (٧) أى متنكراً مصاحبا البازى لأنه أنكر الطيور (٨) حراما .

وأحيا هاتيك النفوس ، ثم تأخذ منه عادة التلصص مأخذها ، وتحل من قلبه مكاناً مكيناً ، حتى تمتزج بلحمه ودمه ، فيغدو من كبار الأئمة المجرمين ، وينقلب وحشاً كاسرا ، تتقى صولته ، وترهب سطوته ، حتى لقد يستحل فوق استلاب الأموال، إزهاق الأرواح ، وإراقة الدماء ، وهتك الأعراض .

هو الفقر يدفع بصاحبه إلى الاحتراف بدنىء الحرف ومَهينها ، هؤلاء سُقّاط [1] القوم ما بين خادم ومُكار وحوذى وزامر ودَفّاف [2] وقراد [3] ومتكفف ودجال ومُشعوذ [4] وعرّاف [5] ومستطلع للبخت ، ما حدا بهم إلى ذلك الامتهان إلا الفقر، الذى أراق من وجوههم ماء الحياء ، وانتزع من نفوسهم عاطفة الشمم والإباء ، وأفقدهم الشعور بعار ما هم فيه ، أم ماذا يفعلون ، وقد ركبت فيهم غريزة الحِفاظ على الحياة . والحرص على البقاء : وسدت فى وجوههم أبواب الكسب الشريف ؟

يرىء الفقير دَخله لا يفى بحاجة فيمد يده إلى الاستدانة، ولا يفتأ يدّان حتى تفدَحه الديون وهو لا يستطيع لها وفاء . فيضطر إلى هضم الدائنين حقوقهم ، وأكلهم أموالهم ، لا يرقب

(١) الساقطون (٢) من يضرب بالدف (٣) لاعب القرد (٤) الشعوذة لعب يرى الانسان ما ليس له حقيقة كالسحر (٥) المنجم.

فى ذلك إلاً [١] ولا ذمة ، ولا يرهب حساباً ولا عقابا .

هو الإملاق يبذر فى نفس صاحبه بذور البخل والجشع ، فيقبض على الدانَق [٢] بكلاليب [٣] من حديد ، ويحرص على السُحتوت [٤] حرص المرء على حدقة عينه .

هو الإملاق يدعو إلى الملق والرياء ، والمداهنة والمراء ، فكأين من مرءوس يسومه رئيسه الخَسف [٥] ويوليه الصّغار [٦] فيحتمل أَذاه ، ويُغضى عينه على قذاه ، ويستقبل مايَجبَهه [٧] به من مَض الكلم ، وقوارص الشتائم ، بثغر باسم وصدر رحيب ، بل يبذل جهده فى التودد إليه ، ويخضع له خضوع العبد لمالكه ، عله يستميل فؤاده ، ويستجلب رضاه ، وما أخلق ديباجته [٨] ، وضرب عليه تلك الذلة والمسكنة إلا حاجته وعوزه .

هو الفقر يحرج الصدر ، ويذهب بالحلم ، ويثير كامن الغضب ، فلا تلقى الفقير ، إلا وهو عبوس قمطرير [٩] . ولا تكلمه إلا تراه شديد الانفعال ، كأنما قد انتابته نوبة عصبية . أو أصابه مس من الصرع [١٠] ، وما صرعته إلا نوبة الإملاق .

وافد تشتد به المسغبة [١١] فيوغَر [١٢] صدره على الأيام ، ويحمل

(١) عهداً (٢) سدس الدرهم (٣) مخالب (٤) الشيء القليل (٥) الذل (٦) الذل أيضاً (٧) جبهه لقيه بما يكره (٨) الديباجة الخد أى بذل وجهه (٩) سديد العبوس (١٠) داء يشبه الجنون (١١) الفاقة (١٢) يمتلئ غيظاً .

لها ضَب [1] ضغن ، ويرميها بالتحامل عليه ، والتنكر له ، ويسب الدهر وينكر فعله ، وبالأحرى يكفر بالله ، زاعما أنه قد آثر غيره بالهناءة ، واختصه بالبلاء ، فيزيغ عن دينه ، ويبوء بالخسران ، لا دنيا أحرز ، ولا دين أبقى ، ذلك هو الخسران المبين.

وكم من أناس طحنهم بكلكله [2] الطوى ، ورماهم بتبريح [3] الجوى ، ففزعوا إلى الانتحار ، تخلصاً من بؤس الحياة ، وهروباً من اقتراف منكر يورثهم العار .

هو الإملاق يدعو المرأة إلى التسكع [4] فى الضلالة ، ويقتادها إلى بيوت الخنا [5] ، تملق المرأة فتتلمس موارد الكسب الشريف ، فيقعد بها العجز ، فلا يسعها آنئذ إلا أن تبتذل خدرها ، وتبيع عرضها فى سوق الفسوق بثمن بخس ، تقضى به لُبانتها [6] . وكسيرة تقيم بها صلبها .

هكذا يقضى عليها الفقر أن تركب تلك الخطة الدنيئة ، وأن تكون سلعة يستامها الرفيع والوضيع ، وأن تغدو رقيقة تصانع هذا ، وتخطب ود ذاك .

ما يدريكم أيها القوم لعل تلك المرأة التى نسميها بغيا . والتى

---

(١) الغيظ والحقد (٢) الكلكل الصدر (٣) البلوغ في المشقة إلى غايتها (٤) التمادى فى الباطل (٥) الفحش (٦) حاجتها .

تنظر إليها نظراً شَزْراً [1] ، كأنها انسلخت عن الهيئة البشرية ، كانت من قبل حَصاناً [2] لا يرام خِباؤها ، لعلها من بيت طاهر الأُرومة [3] رفيع الحسب ، ولكنه سائق الفقر العنيف رمى بها في أحضان الفجور والتبذل .

لا تعجبوا إذا رأيتم ذاك الملَك قد أضحى شيطاناً رجيماً ، ولا تدهشوا إذا أبصرتم هذا الكنار قد انقلب أفعى في أنيابها السم ناقع ، تنهش كل من تلقاه ، وتلدغ كل من ظفرت به ، فقد امتلأ قلبها حَرَداً [4] وحفيظة على بني الإنسان ، ونفثت تلك البيئة الساقطة في رُوعها [5] سموم الخبائث . وعلمتها الافتنان في أساليب الخِب [6] والخداع ، ومن باع عرضه استزرى الشرف . وهانت لديه كل فضيلة .

يروم الرجل الاقتران ، ولكن يرى أنه لا يكاد يصيب الكفاف من الرزق ، فكيف به لو حمل ثِقل زوجة وأولاد ؟ حينذاك يهرُب من تلك الضائقة إلى منفسح العزوبة ، ولا يدري إلا الله ماوراءها من خبايا الزوايا .

كم قعد الفقر بالمرء عن بلوغ مناه ، وكم نغص عليه صفو العيش ، وكم أخبث نفوساً طاهرة ، وكم أذل نفوساً عزيزة ،

(١) النظر بمؤخر العين (٢) عفيفة (٣) الاصل (٤) غضبا وكذا الحفيظة (٥) قلبها (٦) الخداع.

واستنزلها من شامخ الذرا ، وكم قطع أواصر [1] الود بين ذوى القربى والخلان، وأفرده صاحبه إفراد البعير الأجرب، لا يتحدب [2] عليه صديق ، ولا يعطف عليه قريب .

هو رأس كل بلاء ، وأصل كل شقاء ، وينبوع الجرائم ، ومعدن الشرور ، ومهبط الدنايا ، وموطن الخطايا .

رحمة لك أيها الفقير ، كل ظروفك بواعث على تماديك فى غيك وإثمك ، نشأت بين أسرة رقيقة الحال ، فلم يمكن أباك فقره أن يرضعك لبان العلم ، ويوردك مناهل التربية ، بل تركك هائماً على وجهك ، ترتع فى مراتع الغواية ، وتضطجع فى مراقد الضلال ، لا وازع يزعك ، ولا مرشد يهديك ، ثم خرجت إلى ذلك المجتمع الإنسانى، فقسا فى حكمه عليك ، وأنزلك منزلة البهائم العجم ، وغدا يتنقص عرضك ، ويغالى فى تحقيرك . وسلبك محاسنك ، فما من خلة [3] هى للغنى مدح إلا جعلها لك ذما ، إن كنت شجاعا سماك أهوج ، أو جواداً سماك مبذراً ، أو حليما سماك ضعيفاً، أو وقوراً دعاك بليداً ، أو وديعاً دعاك أبله . أو نطقت دعاك ثرثاراً ، لذا صغرت لديك نفسك ، وهان عليك قدرك ، ونضب من وجهك ماء الحياء ، فطفقت تأتى ما تشاء من الجرائر [4]

---

(١) روابط (٢) لا يعطف (٣) حصلة (٤) الجرائم .

غير مكترث بعذل العذّل، ولا مبال أن يعلن جرمك على رءوس الأشهاد، ولو مررت عليهم مكبلاً بالأغلال.

تجترم الجرم للقمة تسد بها رمقك، فيسارعون إلى القبض عليك، ويزجونك فى أعماق السجون، تذوق فيها من صنوف التعذيب. وألوان الشقاء، ما تبعَل(١) بحمله، ثم تخرج من السجن وقد زادتك قسوة العقوبة تمادياً فى باطلك، وأرهفت صرامتها صارم آثامك وشرورك.

ذلك ما أرى فى الطبقتين العليا والدنيا من الأمة، أرى أن الترف والإملاق قد أفسداهما، وأن الطبقة الوسطى أرجح كفة، وأزكى نفساً، وأنقى قلباً.

لا أكذب الله فكم من المترفين من لم تترفه(٢) النعمة، ولم يبطره الغنى، فظل معتصما بحبل السداد، ناهجا منهج الرشاد، لا يستميله هوى النفس، ولا يستهويه شيطان الغرور، وكم فى تلك الثياب المخرقة، والأسمال الممزقة، من نفوس أنصع من الفضة، وأنقى من نمير(٣) الماء، نعم إن بين هؤلاء المعدمين من امتد الفقر إلى ثوبه فأبلاه، وإلى بطنه فأجاعه، ولكنه لم

---

(١) ما لا تستطيع (٢) أترفته النعمة أطغته (٣) الماء الصافى.

يمتد إلى نفسه، فيقف بها موقف الضراعة والإجرام، إن ينهم من ينشد اسان حاله :

على ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

الأمـــل

الأمل ربيع الحياة، ومسرح الأرواح . وريحانة النفوس، وضرة [1] البؤس، وسلوة المحزون، هو نجعة [2] الرائد [3]، وقبلة القاصد، وذريعة المتوسل، ووسيلة المتوصل، والقائد الخبير إلى المآرب، والهادى الرشيد إلى المطالب، هو المشجع اقاب الرعديد [4]، والمثير لهمة البليد، والمطلق ايد البخيل، هو السمير الذى لا تمل مسامرته والأنيس الذى تحيي النفس مؤانسته، هو سلاح المرء الذى يكافح به خطوب الزمان، ومعقله [5] الحريز إذا ما هاجمتـه جيوش الحدثان، هو مبسر الصعاب، ومذلل العقبات، ومدنى النائى، ومجيز المستحيل .

إن كان ربان السفينة لا يهتدى فى ذلك البحر الخضم [6] إلى

(١) ضرة المرأة امرأة زوجها (٢) طلب الكلأ فى موضعه (٣) المرسل فى طلب الكلأ
(٤) الجبان (٥) الملجأ (٦) الزاخر .

ساحله إلا بالإبرة المغناطيسية ، أو كان السارى فى ظلمة الليل البهيم لا يستبين السبيل إلا بنور القمر ، أو كان السالك مفازة مُضلة لا يسترشد إلى العمران إلا بِعَلَم[1] ، فالأمل إبرة بحر الحياة، وبدر غياهبها[2] ، ومعلم مفازتها .

لا يكاد المرء يتنسم ريح الحياة ، حتى تغرس يد الطبيعة فى فؤاده شجرة الآمال ، ثم لا تفتأ تتعهدها سحب الأيام بالرى والسُّقيا ، حتى تغدو دَوحة[3] باسقة، وارفة الظلال ، متشعبة الأفنان[4] .

ليست الآمال إلا سلسلة قصص يمثلها المرء على مسرح الحياة ، كلما مثل منهاقصة أعمل فكره ، وشحذ ذهنه فى إتقان تمثيل أخرى ، وهكذا يظل كرة تتلقفها أيدى الآمال ، وسفينة تتقاذفها أمواج الأمانى ، حتى تعصِف بها عواصف المَنون ، وتَهوى بها إلى قرار الغيب .

الأمل هو ذلك السر الغريب الذى أودعه الله فى نفوس البشر ، كى يقوم نظام العالم ، ويتم عمران الأرض ، إذ هو الذى يدفعهم إلى التنافس فى إحراز مرافق[5] الحياة ، والتبارى

(١) مايستدل به على الطريق من أثر ونحوه (٢) جمع غيهب وهو الظلمة (٣) الشجرة العظيمة (٤) الأغصان (٥) خيراتها.

فى مضمارها ، ولولاه لتعطل دولاب العمل ، ووقفت حركة السكون ،وانزوى كل فى كِسر بيته،وظل الناس على فطرتهم الأولى، يعمهون [١] فى طخية [٢] عمياء ، ويخبِطون فى جهالة عريضة.

إن المرء لا ينبعث فكره إلى معاناة عمل من الأعمال ، ولا يرُوض نفسه على احتمال مصاعبه ، إلا إن كان يأمل من ورائه آمالا كبارا ، ويرجو فيه حسن المآل ، هذا الزارع لولا ما يأمله من محصول وفير ، وخير كثير ، لما ادّان تلك الديون الفادحة ، وصبرَ [٣] نفسه على ذلك العمل الشاق فى حمَارّة [٤] الصيف، وصبارّة [٥] الشتاء ، وهذا التاجر لولا مايرجوه من الربح الجزيل، لما خاض البحار ، وقطع السهول والقفار ، لجلب المتاجر والسلع ، ولما أنفق فيها كل مرتخص وغال ، وهذا الطالب لولا ما يقدره من النُجح لنبذ الدرس والاستذكار وراءه ظهريا . وهذا المقامر لولا ما يمنى به نفسه من إحراز القِدْح المعلّى ، لما أنفق فى بيوتات القمار عن كرم حاتمى ، وهذا الجيش لولاه ما يختمر فؤاده من الغلب والفوز ، لما خاض معامع الوغى ، واستهدف للدّمار ، ولا نطيل عليك بإيراد المثل فهى تندّ عن أن تحصر ، وكلها ناطقة بصحة

---

(١) العمه التردد فى الضلال (٢) ملب الظاء الظامه (٣) حبس (٤) شدة حره
(٥) شدة برده ،

تلك القضية وصدقها ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها ، ولا غرس غارس شجرا »

وقال الشاعر :

وليست حياة المرء إلا أمانيا فإن هي ضاعت فالحياة على الأثر

نصح عزيمة المرء على مزاولة العمل ، فما هو إلا أن يخطو في سبيله بضع خطوات ، حتى تعترضه غابات وأدغال[١] ملأى بالوحوش الكواسر ، فيفرَق[٢] ويُسقَط في يده ، وتحدثه النفس بالفرار والقفول ، وإنه لبهم بذلك وإذا بمنادى الأمل يناديه ، لاتخف ولا تحزن إنى منجيك ومخرجك من تلك الطريق بسلام ، ثم يأخذ بضبعه[٣] ، ويسير معه جنباً إلى جنب ، فتنكل[٤] عنه تلك السباع ، ولا تستطيع أن تنال منه نيلا ، وهكذا يظل مخترقا به طريقاً بعيدة المسافة متراخية الشقة[٥] ، حتى ينال منه الإعياء والكلل ، ويأنس الأمل منه ذلك . فيسرى عنه الهموم ، وينتزع من فؤاده اليأس ، ويرغبه في العواقب الحميدة ، فينشط عزيمته ، ويضاعف قوته ، إلى أن يقف به على المناهل العذبة التي يتشوف إليها ، فيستقى منها ويشفي لوعة ضميره

---

(١) الأشجار الكثيرة الملتفة (٢) يفزع (٣) عضده (٤) تجبن (٥) السفر البعيد.

وهنالك تنسيه لذة الفرح بنيل الآمال ، ماتجشمه فى سبيلها من الأخطار .

كذا قضى أن تكون الآمال بعيدة المنال ، وعرة المسلك ، صعبة المرتقى ، لا تبتاع إلا بثمن غال ، ولا تنال أو يضحي فى سبيلها النفس والنفيس ، ولا غرو فالوردة لاتشم حتى ينتزع شوكها ، ولا بد دون الشهد من إبر النحل .

يتفاضل الناس فى هذه الدار ، ويعلو بعضهم فوق بعض درجات ، بقدر ما تكنه ضمائرهم من الأمانى والآمال ، فمنهم من كبرت نفسه ، وعلت همته ، فطمح بصره منذ حداثته إلى العلياء ، وأشرب فى فؤاده حب المجد والرفعة ، فسعى لها سعيها غير هياب ولا وجل مما يعترضه من العقبات ، وما يعانيه من المشاق ، حتى أشرف على أمنيته من كثب [1] ، وتبوأ أرائك السؤدد والعلاء ، ومنهم من هو مستطار [2] الفؤاد ، ضعيف الهمة ، ضيق دائرة الآمال ، يرضى بالكفاف ، ويقنع بخفض العيش ، ولا يعدو ذهنه إلى ما فوق ذلك ، فيقضى العمر وهو خامل القدر ، دارس الذكر ، وضيع المنزلة .

---

(١) من قرب (٢) استطير فلان ، ذعر .

آمال المرء فى هذه الحياة جمة لا عِداد لها ، وأمانيه محيط لا ساحل له ، ولكن

ما كل مايتمنى المرء يدركه   تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

كثر ما فجع المرء فى آماله ، وقعدت به المقادير عن بلوغ أربه . وفاجأته الأيام بما ليس فى حِسبانه ، فتولاه القنوط ، وصهر فؤاده الأسى ، حتى أوشك أن يقضى ، فبعث الله إليه رسول الأمل . فانتشله من مخالب اليأس ، ومحا من قلبه سطور الأحزان ، وأسكنه جنة من النعيم ، تشدو [1] بلابلها ، وتُرِن أطيارها .

هاهو مثرٍ أوتى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، قد دار عليه الفلك بالنحس ، فانقلب شر منقلب . وبدل بالثراء والنعيم فقرا مدقعاً ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، حتى غدت فِجاجها فى عينه كحلقة خاتم . فعمَد إلى مدية يستل بها روحه ، كى يستريح من عناء الحياة ووعثائها ، وإنه ليُهوِى [2] إليها بيده ، وإذا بالأمل قد برز من وراء ستر الغيب . فأمسك بيده ، وسبقه إلى المدية فخطمها وقذف بها فى الفضاء ، ثم جلس إليه يرفه عليه ، وينفس عنه حر موجِدتهِ [3] ، ويطيب نفسه بأن سوف تَحول الحال ، وتدُول [4] الأيام . ويثنى الدهر عنانه . فيبتسم

(١) تغنى وكذا ترن (٢) يمد (٣) غضبه (٤) تدور .

بعد العبوس ، ويصفو بعد التكدير ، ولا يزال به كذلك حتى يهدأ جائش غضبه ، ويبرُد مِرجل حزنه .

كأنى بمريض قد أنهكته العلة وبراه السقام ، حتى عِيل (١) صبره ، وحُبب إليه الموت ، بيد أنه تطلع إلى سماء الخيال ، فشام (٢) فيها برقا من الأمل ، يبشر بغيث هاطل من الصحة والإبلال (٣) فسكن ثائره ، وثاب إليه الصبر والجلد .

فالأمل الأمل خير معوان للمرء على احتمال مصاعب الحياة ، وأظرف نديم يسلى الخواطر ، ويسرى الأتراح ، ويذهب بانقباض النفس ووحشتها .

لولا الأمل لكانت الحياة جحيما تتلظى ، وسعيراً تتأجج ، لولاه لكانت أضيق من سم الخياط ، وأخس من السرجين (٤) ، ولله در الطغرائى حيث يقول :

أعلل النفس بالآمال أرقبها

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

كم من امرئ لحمة حياته شقاء ، وسداها بلاء ، ولكنه من الآمال فى نعيم ورخاء ، يخلو إلى نفسه فيحلّق (٥) بها فى جو الخيال ، فإذا به يخطِر (٦) فى قصر قد جمع من فنون السعادة وضروبها ،

(١) نفد (٢) رأى (٣) الشفاء (٤) الزبل (٥) حلق الطائر ارتفع فى طيرانه (٦) يتبختر .

كل خارق لِسياج[1] العادة ، خارج عن حد العقل ، وإذا جنود العز تحتف به ، وتنكُسُ له الرءوس إجلالا ومهابة ، وأعلام الهناءة تخفُق فوقه ، وأنهار المسرة تجرى من تحته . يصور له الخيال من تلك الآمال اللذيذة ، والأماني الواسعة ، صورة أنيقة رشيقة تخلب عقله ، وتأخذ بمجامع قلبه ، حتى يرى أنه أهنأ العالمين عيشاً ، وأسعدهم جداً .

وهبه لم يبلغ عشر معشار هاتيك الأمانى ، فقد غدا بفضلها يرشُف من سلسبيل عذب ، ووسع لنفسه ما ضاق عليها من سبل الحياة .

أمانيّ من ليلى حسان كأنما سقتنى بها ليلي على ظمأ برْدا
منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

ولكن ليس للعاقل البصير ، أن يسترسل إلى أحاديث النفس العذبة ، ويركُض[2] جواد الخيال فى مضمار الأمانى ، فيأمل أن ينخرط فى سلك عِلية[3] القوم ويبلغ شأوهم ، ثم يقعد عن اتخاذ الأسباب إلى نيل إربته[4] ، فإنه لا يلبث أن يكبو به جواده ، ويبوء بالفشل والخِذلان ، وفى ذلك يقول الإمام على كرم الله

(١) السور (٢) يستحث (٣) عظماء (٤) أربه .

وجهه « لا تتكل على المنى فإنها بضائع النوكى [1] » ويقول الشاعر .

وخل أحاديث الأماني فإنها ... عُلالة نفس العاجز المتحير

كما يجدر به ألا تخرج آماله عن أفق الاعتدال وحد الطاقة ، فلا يتطلب نيل مالا يقوى على دَرْكه ، ولا يسعى وراء ماتحيط به الهلكة [2] وإلا حبط مسعاه ، وذهبت آماله أدراج الرياح ، وقضى ولم يقض من إدراكها وطراً ، فالسعيد من اعتدلت آماله ، قال صلى الله عليه وسلم « أخاف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل » وقال الإمام على رضى الله عنه « أكثر مصارع الرجال تحت بروق الأطماع » .

حتى لقد ارتأى بعضهم أن الحياة ليست أهلاً أن يؤمل فيها مأرب ، أو يشتاق فيها إلى مطلب ، وأن الأمنية منية ، والمطلب معطب ، والأرب حَرَب ، وحق لهم ما ارتأوا ، فالزمان يدور بالمكتوب لا بالمحبوب ، ويأتى بالمقدور لا بالمرغوب ، ومهما نال المرء من الآمال ، فتلك دار حائلة [3] زائلة ، نافدة بائدة .

ألا يا نفس أن ترضَى بقوت ... فأنت عزيزة أبداً غنيه

دعى عنك المطامع والأماني ... فكم أمنية جلبت منيه

---

(١) الحمقى (٢) بالتحريك الهلاك (٣) محولة.

الانتقـــاد

الانتقاد مَعلم يهدى إلى الرشد . ومنار يضىء نهج الحقيقة ، وثِقاف (١) يصلح اعوجاج المعوج ويقيم أوَده ، الانتقاد حكيم فاره (٢) يميز الغث من السمين ، ويفرق بين الحق والباطل ، وناصح أمين يرشد المرء إلى الحسن فيستشعره (٣) ، ويحذره القبيح فيتنكب عنه ، هو رائد الإصلاح . ورسول النجاح ، مادخل أمرا إلا قوم وهذب ، وما حل بواد مجدب إلى أمرع (٤) وأخصب ، وما عُنى به قوم إلا كلأتهم (٥) عين الارتقاء .

ليس ثَمة مشاكلة بين بنى البشر فى ألسنتهم وألوانهم وسَحَناتهم (٦) ، وكذلك شأنهم فى أهوائهم ونزعاتهم وعقولهم ، فقد يرى أحدهم ذلك الأمر مليحاً مستطرَفاً ضاربا فى كبد الحقيقة ، ولكن غيره يراه مستهجناً مخطئاً مواقع الإصابة ، حائدا عن محجّة الهدى ، حينذاك يتحاجّان (٧) إلى فيصل (٨) الانتقاد ، فيستجلى غوامض الأمر ، ويستكشف عن دقائقه ، ثم يصدَع (٩) بالقول الفصل ، ويهديهما إلى سواء الصراط .

---

(١) ماتسوى به الرماح (٢) حاذق (٣) يلازمه (٤) أخصب (٥) حرستهم (٦) هيئاتهم (٧) يتخاصمان (٨) حاكم (٩) يجهر .

إن المرء مهما أوتى من العقل والحكمة ، ووهب من الذكاء والفطنة ، لن يتسنم سَنام السداد ، أو يقتعد غارب[١] الحَصافة[٢] ، ولن يعصمه ذكاؤه من الزلل والعثار — والعصمة والكمال لله وحده — بل لايزال متعطشاً إلى آراء الحكماء ، مفتقراً إلى نقد الناقدين ، ولقد يحس فى بعض الأحايين علة كامنة فى ثنايا عمله ، ولكنه لايهتدى إلى مقر الداء — ولا غرو فالمرء لايرى عيب نفسه — حتى يُقيض[٣] الله له بعض من فَرّوا[٤] عن ذكاء ، وفُتشوا عن تجربة ، فيسد ثلمة الخلل ، ويستأصل شأفة[٥] النقص.

قد يتراءى لك الشىء أول وهلة بمنظر خلاّب ، يملأ عينك رَوعة وجلالا ، ولكنك إذا سبرته[٦] بمِسبار الانتقاد ، ونظرت فيه نظرة تستبطنه ، وينفذ شعاعها إلى صميمه . ألفيته أجوف[٧] هواء .

من بين هذا الناس من لا يعنى بتمحيص عمله ، وطرح غُثائه[٨] ، أما لقصر باع ، أو ضعف فى قوة الملاحظة ، أو سهو ونسيان ، أو عجلة وتسرع ، أو سآمة وفتور ، أو سوء نية وفقد ذمة ، أو كلف بالأمر وإغرام[٩] به ، أو استنامة[١٠] إلى صيت طائر.

---

(١) مقدم ظهر الدابة (٢) جصف عقله استحكم (٣) يقدر (٤) أصله من فر الدابة فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها (٥) قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب (٦) سبر الجرح امتحن غوره والمسبار مايسبر به (٧) فارغا وكذا مابعده (٨) البالى من وزق الشجر المخالط لزبد السيل (٩) ولوع (١٠) ركون.

إلى غير ذلك من الأسباب التي ينجم عنها اضطراب العمل وإخفاقه.

بيد أن ذلك الكسل المتراخي، متى عرف أن عين الانتقاد تحملق إليه، وأن النقاد يطوقونه بنطاق من الرقابة، ويتربصون به الدوائر [١]، بذل ما فوق وسعه في إحكام عمله وتنميقه، وحاك له من الطلاوة والرواء ثوباً قشيباً [٢]، ولم يدع فيه مغمزاً لطاعن، أو هدفاً يفوق [٣] إليه سهم ناقد.

إن نباهة ذكر المؤلف أو الأديب في الأمة، وضخامة اسمه، قد تدعو بعض الأغرار إلى الثقة به ثقة عمياء، والانقياد له انقياد الآلة الصماء، فيقدسون آراءه، ويحبذون أفكاره، ويتقبلون كل ما يأتيهم به هشين بشين، ويرى منهم تلك الثقة المطلقة، فيجمح في جهالاته، ويسترسل في خزعبلاته، ويتلاعب بعقولهم ما شاء وشاء له الهوى، ويلبس [٤] على أفئدتهم بهراء [٥] القول، وزائف الألفاظ.

فإذا ما أراد بهم ربهم رشداً، أتاح لهم بعض الغيورين المحققين، الذي عجموا [٦] الأدب عوده، وحلبوا العلم أشطره [٧]

---

(١) ينتظرون أن تنقلب عليه دوائر الزمان (٢) جديداً (٣) يسدد (٤) يموه (٥) الفاسد لا نظام له (٦) عجم العود عضه ليعرف صلابته من خوره (٧) يقال حلب الدهر أشطره للمجرب العالم بالدهر وأصله من حلب شطرى الناقة والشطر كل خلفين من أخلافها والخلف لها كالضرع للبقرة .

فمخض [1] أقواله ، وأدحض أغاليطه ، وأسقط سلطان تُرّهاته [2] المسيطر على أدمغة الواهمين ، وأماط [3] لهم عن وجه الحقيقة اللثام .

ولا تظنن أن ذلك الناقد قد أفاد بنقده الجمهور وحده ، بل أفاد المنقود أيضاً ، إذ بصَّره بمواطن خطئه ، وهتك عنه حجاب ضلالته ، وعلمه أن يتوخى محض الحقيقة ، ويتحاشى عن التدهور ثانية فى مِهواة الخطل ، أفاد العلم واللغة وبرّ بهما ، وحفظهما أن تأكلهما ضباع الضياع ، وتعبث بهما أيدى العابثين .

ولقد عرف العرب من قبلُ تلك الفوائد الثمينة ، فأقاموا الأسواق الكبيرة فى جاهليتهم، تلك الأسواق التى كانت أندية علمية ، ومؤتمرات لغوية ، يؤمها مصاقع الخطباء ، وفطاحل الشعراء ، فيتبارون فى الفصاحة وحسن البيان ، وينقد أقوالهم نفر من ذوى البصر بالأدب ، والاضطلاع باللغة ، وبذا خطت العربية فى سبيل الرقى خطوات واسعة ، ونالت من التهذيب حظاً موفوراً .

وكذلك حذت فرنسة هذا الحذو ، فأنشأت المجامع العلمية « الأكاديميه » ، وحشدت فيها جهابذة [4] المدققين ، وعهدت

---

(١) مخض اللبن استخرج زبده ومخض رأيه قلبه وتدبر عواقبه حتى ظهر له وجهه (٢) الاباطيل
(٣) كشف (٤) جمع جهبذ وهو النقاد الخبير .

إليهم أن يهذبوا اللغة والعلوم ، فجدوا السعى فى ذلك السبيل ، وطفقوا ينبذون من ألفاظ اللغة المستكرَه المستبشع ، والركيك المستهجن ، ويستبدلون به ماعذُب فى الأفواه ، وخف على الأسماع ، وكذلك وفوا العلوم قسطها من التنقيح والتمحيص ، ومن ثَم كانت اللغة الفرنسية لب لُباب اللغات الإفرنجية .

يرى المخلص لأمته ، الساهر على خدمتها ، أن داء العادات المنكرة ، والرذائل الممقوتة ، قد تفشى بجسمها . فيشفق عليها أن يستفحل داؤها ، ويستعصى دواؤها ، فيجرد سلاح الانتقاد . ويحارب ذلك الوَباء ، حتى يجتذ (١) أصوله ، ويقتل جراثيمه ، ويُهيب (٢) بأمته ، داعياً إياها إلى الصراط المستقيم .

هؤلاء جماعة يبغون أن يخوضوا غِمار عمل خطير ، فأحرِ بهم قبل أن يخطوا فى سبيله خطوة واحدة ، أن يطرحوه على بساط البحث والانتقاد ، وأن ينقبوا عن محاسنه ومساوئه ، وأن يُدْلى (٣) كل بحجته وآرائه فيه ، حتى إذا ما صرّح المَخض عن الزُّبد (٤) ، أقدموا عليه آمنين مطمئنين ، متوثقين من النجاح وحسن المغبة .

من أجل ذلك أنشأت الحكومات الرشيدة مجالس الشورى

(١) يقتلع (٢) يناديها (٣) أى يحتج بها (٤) أى انكشف الامر وتبين .

والنواب ، كى تنقد كل ما يعرض عليها من القوانين والمشروعات والمقترحات ، فإذا ما استيقنت نفعها شرعت فيها وإلا نبذتها .

إن رجال القضاء والإدارة إن لم يكونوا نُقاداً مستبصرين ذوى حُنكة ودُرْبة ، يسترشدون بسراج تجربتهم فى ليالى المعضلات ، ولا يضيق بهم دَرء الشبهات ، ولا تصرفهم سفسطة أو مداهنة عن تكشيف الحقيقة ، إن لم يكونوا كذلك أدانوا البرىء ، وبرءوا المجرم ، والتوت عليهم سبل الحق ، وراجت سوق الماكرين ، ونكست رأسها العدالة . وامتد عرق الاضطراب والخراب .

أتدرى لماذا عُنيت مدارس المعلمين بدروس النقد ونقد الدروس؟ لأن تلك أوحد وسيلة تكفل لها إعداد أمهر المدرسين وأكفئهم ، وأبصرهم بأساليب التربية الحقيقية ، وطرق التدريس القويمة ، وبدَهى أن اضطلاع المعلم بعلمه ، ووقوفه على دخائله وخبيئاته ، لا يغنى عنه شيئاً مادام لا يعرف كيف يبث علمه فى نفوس النشء ، بأقرب الطرق الطبيعية وأوضحها .

ثم رأى رجال التربية أن ذلك غير كاف فى إبلاغ المعلمين الدرجة القصوى، وإحصاد (١) مِرَّتهم (٢) فى فن التدريس ،

---

(١) أحصد الحبل فتله وفلان محصد الرأى سديده (٢) طاقة الحبل ومن معانيها الصاد.

فتخيروا المحنكين من المفتشين ، لتفقد أعمالهم وانتقاد دروسهم، وتنبيههم إلى ماقد يبدُر منهم من الأغلاط .

وصفوة القول أن الانتقاد قِوام [١] كل مائل ، وقَصد [٢] كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، ولو شئنا أن نستقرئ كل فروع الانتقاد وأثرة فيها . لضاق بنا المقام ، وأعوزنا ذلك إلى مجلدات ضخام .

بيد أن للانتقاد شرائط وحدوداً ، إن تعداها الناقد ذهب نقده ضَياعاً ، ولم يعره أحد التفاتاً.

فأوجب واجب عليه أن يكون سليم الطوية ، شريف المقصد ، متوخياً بنقده المصلحة والنفع ، لم يبعثه عليه هوى نفسى، أو تعصب أو حسد من تلك الأغراض الدنيئة التى تعمى صاحبها عن الحق، وتصوره له فى صورة مشوهة مستبشعة ، وتغريه بتلمس تافه السقطات ، وإعنات [٣] المنقود .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

من الناس من استمكن منهم داء الشهرة العَياء ، وامتزج بلحمهم ودمهم حب الظهور ، فلم يروا سبيلا لنيل مأربهم إلا أن

---

(١) مقوم العقل والقوة (٢) مرشد (٣) ادخال المشقة عليه .

يعمِدوا إلى كبير من كبار القوم ، فيغضوا [1] منه ، وينتقصوا أعماله ، ويسفهوا آراءه ، حتى يتساءل الناس من ذا الذى استطاع أن ينبرى لنقد ذلك الرجل الخطير الشأن ، ويجترئ على مساجلته [2] ومناهضته ، وحتى يمشى بعضهم إلى بعض بحديثه وإكبار قدره ، وتردد الأندية والمجامع صدى ذكره ، فيذيع صيته ، ويهب هبوب الرياح .

ولقد يدرك بعض المنقودين ، مرامى أولئك النقاد ، فيصدِفون عنهم ، ويُغمدون سيوف انتقادهم فى نحورهم ، إذ يرون أن الإقامة على مناظرتهم ، تشجعهم على متابعة نقدهم ، وتوجه أنظار الجمهور إليهم ، وتعبّد أمامهم طرق الشهرة ، وتوطئ لهم مهادها ، بَلْهَ [3] أنهم بكفهم عنهم يذرونهم يتميزون [4] من الغيظ ، ويصطلون بنار الحقد والموجدة .

ثم هى الآداب يجب أن يعتصم الناقد بحبلها ، فيفرغ نقده فى قالب نصيحة وإرشاد ، ويصوغه بحيث لا يمجه الذوق ، ولا تعافه الأسماع ، نابذاً ألفاظ البذاء [5] ، وعبارات السباب والشتائم ، نازعا عن التشهير بالمنتقد والإزراء [6] به ، أو جرح عواطفه والطعن

(١) يضعوا من قدره (٢) مباراته (٣) فضلا عن (٤) يتقطعون (٥) الفحش (٦) أزرى به أدخل عليه عيباً أو أمرا يريد أن يلبس عليه به .

فى شخصه ، فإن ذلك أولى بأن يسمى قذفا ، من أن يدعى نقداً .

إنا نبغى من المنتقد أن يهدينا من ضلالة ، أو يرشدنا من غى ، لا أن يعرض علينا منه سبّابة شتّامة سَليط [1] اللسان ، مُقذعا [2] فى هجوه ، فاجعاً بتهكمه ، لم يدع فى بطون المعجمات [3] لفظة من فاحشات القول وهُجره إلا أحاط بها علما .

إن رِقحة [4] الناقد قد تنم عن سوء باطنه ، وتحامله على المنقود ، وحب التشفى منه ، فيضرب الناس عن نقده صفحاً ، ويطرحونه فى زوايا النسيان . كما أنها قد تصرف المنتقَد عن قبول قوله ولو كان حقاً ، ولا غرو فالنفوس البشرية مجبولة على عدم الخضوع لمن يأخذها بالعنف والشدة .

وفوق هذا وذاك فأى تِرة [5] للناقد لدى المنقود ، تغريه بأن يناصبه [6] العداء ، ويكاشح [7] له بالبغضاء ؟ اللهم إنهما ليسا إلا شريكين قد تكاتفا على البحث عن الحقيقة ، فليبحثا عنها بهدوء ووقار .

كذلك يجب على الناقد أن ينظر إلى ما ينتقده نظراً خالصاً

---

(١) بذىء اللسان (٢) أقذعه رماه بالفحش وسوء القول (٣) القبيح من الكلام
(٤) وقاحة (٥) ثأر (٦) ناصبه العداوة أظهرها (٧) كشح له بالعداوة أضمرها.

من شوائب الأغراض ، فلا تدعوه ضَعة امرئ إلى انتقاد كل ما يأتى به ولو كان حقاً صواباً ، كما لا تدعوه رفعته إلى إطراء عمله وتحبيذه ولو كان عريقاً فى الخطأ ، بل يُنزل كلا منزلته ، ويوفيه قسطه .

قد يرى بعض الأصدقاء اعوجاجا فى خلق صاحبه أو عمله ، فيغض عنه طرفه ، ويمهد له فى الاغترار ، تابعاً لمرضاته ، منقادا لهواه ، ولكنه بذلك يذبحه بغير مدية ، ولا يلبث أن يرديه فى هوة لا تستبل[1] نفس من فيها هوى .

يجب على الناقد أن ينظر فيما هو بصدد نقده نظراً بالغاً ، ويتأمله تأملا صادقاً ، يتجلى به باطنه ، وتنكشف دقائقه وخفاياه ، وأن يعزز نقده بالبرهان القاطع ، والحجة الدامغة ، وإلا كان عليه لاله ، وألا يعدل عن أمهات المسائل وأصولها إلى سفاسفها ومحاقرها ، وإلا كان ذلك أدل على عجزه وضعفه .

يجب عليه أن يسير فى نقده سير الحكيم الرشيد ، فلا يباغت المنتقد بقسره على ترك ما انتقده منه دفعة واحدة ، فالعادة إذا استحكمت تعذر الإقلاع عنها ، وربما استحال ذلك ، إن مثله آنئذ كمثل الطبيب يجرع العليل الدواء مرة واحدة ، فيفضى ذلك إلى نُكسه .

---

(١) تبرأ .

تلك هى الدّعامة الوطيدة التى يقيم عليها الرسل والشارعون بنيان شرائعهم وقوانينهم ، ويُعطفون بها القلوب الصوادف .

يجب عليه ألا يأتى مكروهاً يحذر اتباعه ، حتى يثمر نقده ويستمع لقوله .

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وكلتنا للمنقود ألا يكبر عليه الرجوع إلى الحق متى عرفه ، فالرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، واللّجاج فى المخاصمة يذهب بالحقيقة ويطمِس معالمها .

من ذا الذى ما ساء قــــط ومن له الحسنى فقط ؟

نعم إن الحق على كثير من الناس صعب الاحتمال مر المذاق ، ولـكن « من أطعمك المر لتبرأ ، خير لك ممن أطعمك الحلو لتمرض »

بقى علينا أن نقول إن كثيراً من الناس قد تخامر أفئدتهم فكرة حسنة ، ولـكنهم لا يجرءون أن يخرجوها إلى حيز الفعل خشية الانتقاد ، فنقول لهم مادمتم على يقين من صواب رأيكم وأصالته ، متثبتين أنه لا يعدو دائرة العقل الصحيح ، ولا ينقض سنة من سنن الدين ، فاجهروا به ، وإن خالف ما اجتمع عليه القوم ، ولا تخشو لوم اللائمين ، ولا تحفلوا بشغب المشاغبين .

الجـد

كلمة كثر مالاكتها الألسن، ورددتها الأفواه، وطلسم معنًى يقف أمامه الباحث اللبيب مبهوتاً حائراً، لا يُحير[1] جواباً، ولا يستطيع لرموزه حلاً، إى وربى أنه لمثار الدهش، ومبعث العجب، ومناط البحث لدى القُدامى[2] والحديثين.

اختلف القوم. أحق أن هناك ما يدعى بالجد؟ فقال فريق إنه حق يكاد يرى بالعين ويلمس باليد، وقال آخر إنه لوهم باطل لا وجود له إلا فى متخيلة أولئك الكسالى العجزة الألى يستنيمون[3] إلى الدعة؛ ويلقون جنوبهم على مهاد الراحة، وتهِن عزائمهم عن اقتحام غمرات الشدائد، وركوب متن الأهوال، حتى إذا ما عُذِلوا على ضعتهم وتقاعدهم عن تطلب المعالى، ألقوا معاذيرهم، وقالوا بملء فيهم: ليس لنا من الأمر شىء، كل شىء بقضاء وقدر، لم يُسعدنا الجد، هذا حظنا كتب علينا، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وأضراب ذلك مما يبغون به إلقاء التبِعة عن عواتقهم.

---

(١) لا يرد (٢) القدماء (٣) استنام إليه سكن واطمأن.

ويستطرد ذلك الفريق فى رأيه فيقول : هب الجد حقا ، أليس هو قرين الجِد ، وحليف الكد ، ألست تعلم أن لكل مجتهد نصيباً ، وأن الكادح لابد أن يجنى ثمار كدحه، ألم يبلغك ما قال القائل « الجد فى الجد والحرمان فى الكسل » ؟

تلك حجتهم فيما يزعمون ، ونحن نقول لهم إنكم أصبتم فى الأولى ، ولم توفقوا فى الأخرى ، وإن أبيتم علينا ذلك الرأى ، فذروا تلك القضايا التى سئمتها نفوسنا . ومجتها أسماعنا ، وتعالَوا نخبُر الأمر عِيانا [1] ، ونشهده شهودا ، ماذا نرى ؟

نرى مجداً يشتد عَدواً وراء أمنيته ، ولا يَنِى لحظة عن السعى إليها ، مضحياً لأجلها النفس والنفيس ، باذلا فى سبيلها ثمين صحته ووقته ، غير حافل بما يعانيه من النصب واللّغب ، حتى إذا ما صار منها قاب [2] قوسين أو أدنى . بثّت له يد المقدار ألغام العقبات ، وجعلت من بينه وبينها سدا . فارتد يتعثر فى ذيل الخيبة والفشل ، وعاد يغض الطرف وهو حسير .

فإلام نعزو إخفاقه وحبوط مسعاه ؟ أإلى فتور همته وقد أعذر ؟ [3] أم إلى جده العاثر ، وحظه المنكود ؟ نعم إنه هو .

على حين أنا نرى ذاك الذى لا يجد جده ، ولا يسعى سعيه،

---

(١) مصدر عاين الشئ رآه بعينه (٢) قدر (٣) صار ذا عذر .

ذاك لا يشاكله كفاءة ومقدرة، ولا يدانيه ذكاء وتبصرة، قد عبّد له حظه الطريق إلى الدرجات العلا، فطَفَر [1] إليها طفوراً، وامتلك ناصيتها امتلاكا.

ألم تر إلى ذلك المضارب الذى يبذل جل ماله فى ابتياع سهام مالية يقدّر بعدُ ارتفاع ثمنها، كيف يخونه الجد فتهبِط أسعارها هبوطاً فاحشاً ويبوء بصفقه المغبون؟

وإلى الزراع الذى لا يدّخر وُسعاً فى تعهد زرعه وإنمائه، والقيام عليه حق قيام، كيف يعكس الدهر آماله، فيرسل عليه جرادا أبابيل [2]، أو دودا أكولا، لا يذر من حرث أتى عليه إلا جعله كالهشيم [3]؟

وإلى الطالب الذى يقيم على استذكار دروسه ليل نهار، ولا يذر منها شاردة أو واردة إلا أحصاها، كيف يحاربه نحس طالعه، فيُلم به مرض عضال، يحول بينه وبين أداء الامتحان؟

وإلى القائد الذى لا يألو جهداً فى استكمال عدته، وإعزاز موقفه، وتحصين ثغوره، كيف يُنيمه القدر عن تلك الثُلمة التى

---

(١) وثب فى ارتفاع (٢) جماعات (٣) النبات اليابس المتكسر.

ينحدر منها عدوه إلى جيشه ، فيمزقه كل ممزّق ، ويفرقه أيدى سبا[١] ؟

كل أولئك يوضح لنا بأجلى بيان أنه مامن يد إلا يد القضاء فوقها ، وأن المرء لا يستطيع لنفسه خفضاً ولا رفعاً ، ولا يملك لها ضرا ولا نفعاً، وأن مجاهدته لن توصله ما حبس عنه ، ودعته لن تمنعه ما قدر له « ما يفتحِ اللهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها ، وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِل له من بعده » .

متى أقبل جدك — وناهيك به إن أقبل — أقبل معه كل خير ، فدنا إليك كل قاص ، ودان لك كل عاص ، وافتتحت كل مُغلق ، وحالت كل مُعضل مستغلِق ، وأمنت كل خوف ، ولم تخش من الزمان الحَيف ، واصطدت العنقاء ، واقتدت الجوزاء ، وجُزت دارة[٢] الشهُب ، ولم تجد عسيراً من الآمال إلا ميسراً .

وإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأثمر فى يديه فصدق[٣]

لولا الجد لما تبوأ كافور الإخشيدى — ذلك المولى الخصِىّ الأسود أريكة ملك مصر ، ولما تأمر[٤] على ساداته ، وأنفذ فيهم أحكامه ،

(١) أى يفرقه تفرقا لا اجتماع معه وسبأ هو أبو قبائل عرب اليمن وكانوا فى سعة من العيش فعصوا ربهم فأرسل عليهم سيل العرم (وهو السيل الذى لا يطاق) فبدد شملهم ومزقهم فى الاطراف (٢) الدارة الهاله التى تستدير حول القمر ومعناها هنا الفلك والشهب الكواكب الدرارى (٣) مجدود : ذو وجد (٤) صار أميرا .

وإذاالسعادة لاحظت عبد الشرا   نفذت على ساداته أحكامُهُ

ولنورد لك ماذكره « ابن طَباطَبا » فى كتابه « الفخرى » عن نشأة الدولة البويهية [1] ، لتتبين كيف يرفع الجد صاحبه من ضَعة ، ويعزه من ذلة ، ويطعمه من جوع ، قال :

« أما ابتداؤها فإنها دولة نبعت بما لم يكن فى حساب الناس ، ولم يخطر بعضه ببال أحد ، فدوخت الأمم . وأذلت العالم ، واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولتهم ، واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق ، وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق ، هذا بعد الضيق والفقر ، والذل والمسكنة ، ومعاناة الحاجة والاضطهاد ، فإن جدهم أبا شجاع بُوَيه وأباه وجده ، كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد السمك ، وقد كان معز الدولة (بن بويه) بعد تملكه البلاد ، يعترف بنعمة الله تعالى ، ويقول : كنت احتطب الحطب على رأسى »

---

(١) لما ضعفت شوكة الخلفاء العباسيين فى المائة الثالثة للهجرة بضرب مماليكهم من الترك على أيديهم ، وتدخلهم فى تدبير الدولة وسياستها ، مع جهلهم وخرقهم : اضطربت المملكة ، ورأى كل ذي قدرة أن الأمر خرج من يد الخلفاء ، فاستبد بناحية مع الاعتراف للخليفة بالخلافة ، وتبجح من هؤلاء المستبدين آل بويه فخرجوا على الخلفاء وأخذوا بلاد فارس والجزيرة ، ثم استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ورتبوا للخليفة مرتبا يكفيه لقوته وأهل بيته ، وصاروا هم فى الحقيقة ملوك بغداد .

ومتى أدبر الجد عن أمرئ ، أدبر عنه كل خير ، وأقبل إليه البلاء والضير ، وتصالحت عليه النُوَب ، وتقاذفت به الكرب ، وسُلك فى سلسلة من الشقاء متصلة الحلقات طويلة الذَرع [١] ، ولم يجاوز عقبة من الضر إلا صار إلى أشد منها ، نعم إن أدبر عنه هِيض جناحه ، وكسرت عصاه ، وذوى نَوره [٢] ، وغرَب شارقه ، وكان من المهلَكين .

وإذا سمعت بأن محدوداً [٣] أتى ماء ليشربه فغاض فحقق

ها نحن أولاء نُجد البحث عما باين بين الناس فى درجاتهم ومراتبهم ، ولا نزال فى ليل من الحيرة لا ينجاب [٤] حِندِسه ، [٥] ولا يُسفر صبحه .

ترى هل من تفاوت بين الناس فى الإنسانية والتركيب الخلق ، أفضى إلى أن يكون هذا سيدا مالكا ، وذاك عبدا مملوكا؟ اللهم لا فكلهم ذلك الحيوان الناطق ، كلهم أبناء رجل واحد وأم واحدة .

مابالنا نرى أخوين انشقا من نَبْعة [٦] واحدة ، ورُبيا مربى

---

(١) الامتداد (٢) الزهر (٣) المحروم (٤) ينكشف (٥) الظلمة (٦) النبع شجر تتخذ منه القسي أى من أصل واحد.

واحدا ، قددارت عليهما دورة الفلك ، فإذا أحدهما نبيل خطير ، وإذا الآخر وضيع حقير ؟

ترى هل تلك الأرزاق مقسمة تقسيما مناسباً للعقول قوة وضعفاً ، فلا ينال المرء منها إلا كِفاء[1] ذكائه ؟ اللهم لا

فلو كانت الأرزاق تجرى على الحِجا
هلكن إذاً من جهلهن البهائم

بل طالما رأينا تلك النسبة عكسية ، فكأين من نابغة نِحرير جم الفضل ، واسع العرفان ، غزير العلم ، نادر الذكاء ، موفور الحجا ؛ تراه منحوس الطالع ، شقى الجد ، يتقلب على فراش الخَصَاصة والبؤس ، ويموج فى لجة من نكبات العيش ، وضَرَبات الأيام ؛ همة فى الثريا وجد فى الثرى .

وكائن من فَدم[2] أحمق ، ومأفون[3] أخرق ، يخبط فى دَيجور[4] من الجهالة والغباوة ، تراه فى سَعة من العيش ، وبشاشة من الحال.

حتى لقد اشتد الحَنق ببعض من حُمق حظهم ، فأثبتوا أن الجد والجدمتنافران تنافر الكهربائيتين المتماثلتين ، وأن الغبى هو الغنى ، والفطِن هو الفقير ، وأن الغنى والحجا ضدان لا يجتمعان ، ونقيضان لا يلتقيان :

---

(١) ما يكافئ (٢) غبى (٣) الضعيف الرأى والعقل والاخرق الاحمق (٤) الظلام .

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد
ولا المجد فى كف امرئ والدراهم

أثبتوا أن خلق الزمان عداوة الأحرار ، وأنه مولع بالتحامل على الأماثل والكيد لهم ، رءوم [1] للسفلة الجهال عن بهم ، وأنه كالميزان يرفع الناقص ويخفض الزائد .

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
ويستقر بأقصى قعره الدرر
وفى السماء نجوم لاعداد لها
وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وكم على الأرض من خضرا ويابسة
وليس يرجم إلا ماله ثمر

سبحانك ربى قسمت بين عبادك معيشتهم ، ورفعت بعضهم فوق بعض درجات ، ولك فى ذلك شأن خاف ، لا تسمو إليه عقولنا القاصرة ، ولا تدركه قرائحنا الكاسدة ، أنت مالك الملك تؤتى خيرك من تشاء ، وتصرفه عمن تشاء ، لا تسأل عما تفعل وهم يسألون ؟

---

(١) عطوف .

العادةُ وتأثيرها

يقولون « العادة طبيعة ثانية » أو « العادة توءم الطبيعة » وفَحْوى[1] ذلك أنك تفعل الفعل بادئ بدء بتدبر وروية ملازمة لكل جزء من أجزائه ، فيدع فى ذهنك أثراً ضئيلا ، فإذا ما أعدته ثانية رسخ ذلك الأثر أكثر من قبل ، وهكذا كلما تابعت فعله ازداد رسوخاً وتمكنا ، حتى يصير لك طبيعة وسجية مألوفة ، تأتيه بدون إعمال فكر ، أو إنعام نظر .

أنت ترى أنك تخطو آلافاً مؤلفة من الخطوات . دون أن تُرَوِّى أثناء سيرك كيف تنقل قدميك ، ودون أن تخطئ مرة واحدة فى معاقبة[2] رجليك .

تروح إلى بيتك فتنعطف يَمنة ويَسرة ، منحرفا عن هذا الطريق ، معرجاً على ذاك ، حتى تبلغه دون أن تفكر فى اتخاذ السبيل إليه .

ترتدى ملابسك — وقد شغل ذهنك بالتفكير فى أمر آخر — فلا تشعر إلا وقد ارتديتها على المثال والترتيب الذى ألفته لم تبدل منه شيئاً .

---

(١) معناه (٢) أن تأتى إحداهما عقب الأخرى .

وهكذا كل الأمور الضرورية للحياة ، التى لامندوحة للمرء عن تكريرها مراراً عدة ، من المشى والأكل واللبس والخلع والكلام والقيام والقعود والسلام والوداع وغيره ، كل أولئك قد صار بتأثير العادة آلياً محضاً ، وطبعياً بحتاً ، لايعوز حين عمله إلى تمعن أو تفكير .

ومن تأثيرها أيضاً تسهيل الأعمال وإنجازها فى زمن وجيز ، مع الإتقان والإحكام ، إنك لو أردت نقاشاً متخصصاً فى فن النقش على أن ينقش لك حجرة ، لم يلبث غير قليل حتى يريك حجرة مزدانة بآنق الأشكال وأبدع الرسوم ، تخلب الألباب ، وتثير الدهش والإعجاب . وهو لايجد فى ذلك مشقة ولا نصبا ، بينا ترى ذاك الذى لاعهد له بتلك الصناعة ، إن حاول ذلك أعياه اللغب ، ونال منه الجهد ، وأنفق زمناً طويلا ، وفوق هذا وذاك لايجيد إجادة الأول . ولا يبلغ مهارته .

يتكلم كل امرئ بلغته بسهولة وسرعة فائقة ، دون تلعثم ولا تلجلج ، ولا تتعتع [1] ولا تحبس ، فإذا ما أنشأ يتعلم لغة أخرى كابد متاعب جمة من العى والحصر والبطء فى النطق بالألفاظ ، وقضاء وقت كبير فى تلمس الكلمات والتراكيب

---

(١) التردد فى الكلام من حصر أو عى.

الموضحة لما يختلج بنفسه ، وإصلاحها حسب ما تقتضيه القواعد اللسانية لتلك اللغة .

وقس على ذلك كل الأعمال والصناعات ، تجد للعادة فى تسهيلها وإتقانها أثراً بينا .

وليس ذلك قصراً على الأعمال الجسمية ، بل يتناول الأعمال الفكرية أيضاً ، فمن أدمن قراءة الشعر العربى ، عرف حين يُنشَد أى بيت أهو موزون أم غير موزون ، بلا رجوع إلى علم العروض ، ومن استكثر من مزاولة العلوم الرياضية ، فقد يحل المسألة قبل أن يفكر غيره فى حلها ، ومن أخذ نفسه بالتخيل والدقة فى التصور والاستقصاء فى البحث ، غدا بحّاثة متقد القريحة ، ماضى التعقل ، ثاقب النظر .

من الناس من فقدوا تلك الموهبة النفيسة ، موهبة الكفاءة الفطرية ، ولكنهم يتكثرون من المرون عليها والمِراس لها ؛ حتى يسلَس لهم قيادها ، ويسكن جماحها ، وربما بلغوا فيها درجة النبوغ والتبريز .

ذكر « دُرْوى » المؤرخ الفرنسى أن « ديمستين » — أشهر خطباء اليونان فى عصر فيلبش المقدونى — كان سيئ الحظ عند مارقى منبر الخطابة لأول مرة ، فإن جمله الطويلة ؛

وإنشاءه الثقيل، وصوته الضعيف، ونفسه القصير، كل ذلك كان يدعو سامعيه إلى الضحك منه والهُزء به، ولكنه جد فى تذليل هذه الصعاب الطبيعية حتى تغلب عليها، روى « فلوترخس » أنه بنى حجرة تحت الأرض، وكان يعتكف بها ما يتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر، وكان يحلق رأسه كى يحول بين نفسه وبين رغبتها فى الخروج، استحياء من الناس، فيظل يتدرب فى تلك الحجرة على مواقف الخطابة، مصلحاً مايراه من العيوب فى حركاته وصوته، وكان تارة يصعد فى الجبل وهو يعدو سريعاً قارئاً أشعاراً بصوت عال، وطوراً يذهب إلى ساحل البحر، فيملأ فمه بحصيات صغيرة، ليحل عقده لسانه، ويبارى بصوته صخَب [1] الأمواج.

إن هؤلاء الذين يحملون الثيران، ويصارعون الوحش، ويسيرون بالدراجة على الحبال. ويلعبون تلك الألعاب التى تَبَهت الرائين، لم يصلوا إلى ما صلوا إليه من الحذق والفَراهة [2] إلا بطول المرون ودوام الاعتياد.

إن مشاهدتك الشىء، أو عرفانك أوصافه وأطواره، دون تعود ودُربة عليه، لا يكفل لك أن تعلمه حق العلم، فاستظهارك

---

(١) شدة الصوت (٢) الحذق والمهارة.

القواعد لا يُجديك نفعاً مالم تعتد تطبيقها ، والمدرس أو القاضى لن يكون مدرساً أو قاضياً بحفظه قواعد التربية وقوانين القضاء ، بل لابد من التدريب والممارسة .

ومن تأثير العادة إمكان عمل شيئين فى آونة واحدة ، فالنساج مثلاً يخاطبك ويصغى إلى حديثك ، وهو فى تلك الأثناء يعمل بكلتا يديه ورجليه ، ويؤدى عمله على أكمل وجه .

ومن تأثيرها أنها تقلل من قوة الشعور ، إن لم تُمِته وتذهب به ، فهؤلاء العاكفون على اللذات ، المنهمكون فى الملاهى ، ينتهى بهم استرسالهم فيها إلى ألا يُحسوا استلذاذها والاغتباط بها ، وأولئك الذين تتوالى عليهم صروف الزمان ، تتسع صدورهم لها ، وتخف تأوهاتهم منها . وتعود قلوبهم صَفاً[1] صَلْداً لا تنال منه معاول[2] الأيام .

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غِشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وكذا تشاهد أن من يقف بنفسه مواقف الذل والهوان ، ويوردها موارد الدناءة والضعة ، يموت إحساسه فلا يشعر بعار ما هو فيه .

---

(١) جمع صفاة وهى الحجر الصلد الضخم (٢) معول وهو الفأس .

مَن يهُن يسهل الهوان عليه   ما لجرحٍ بميت إيلام

يَصدَح[1] المغنى أو الموسيقى، فيكاد الحضور يطيرون طربا بصوته الرخيم[2]، ونغماته المشجية، وقد لا يحس هو أقل تطرب أو سرور، لأنه اعتاد ذلك وألفه كثيراً فهان عليه.

يقضى الملاحون والفلاحون أعمارهم فى ذلك الهواء النقى، متنعمين بصفاء الجو، متمتعين بمشاهدة جمال الطبيعة، ولكنهم لتكرر تلك المناظر أمامهم كل حين، لم يعد لها فى نفوسهم أثر التذاذ أو استحسان.

ترى حفّارى القبور وحملة الموتى ألصق الناس بالقبور، وأجدر بأن يتعظوا ويذكروا الحساب والعقاب. ويرغبوا فى الدار الآخرة، وينزعوا عن الكبائر والسيئات، ولكنهم لا يفكرون فى ذلك قط، أنساهم إياه تأثير العادة.

سئل عُريان يومَ قُر عما يجد، فقال: ما على منه كبير مُؤْنة[3]. فقيل له وكيف ذلك؟ قال: «دام بِي العُرى فاعتادبدنى ما تعتاده وجوه الناس» وفى ذلك يقول أَبو العلاء المعرى:

إذا ألف الشيء استهان به الفتى   فلم يره بُؤْسَى تعد ولا نعمى

---

(١) صدح رفع صوته بغناء (٢) الرقيق (٣) الثقل.

كإنفاقه من عمره ومَساغه   من الريق عذباً لا يُحس له طعما

ولقد نجم عن ذلك التأثير — تأثير إماتة العادة الشعور — فائدة جُلّى هي قوام نظام الحياة، وعماد عمرانها، إذ به أقام كل امرئ في عمله الذي تهيأ له، وقسر نفسه على معاناته، غير شاعر بما يكتنفه من المشاق، مهما كانت صعبة الاحتمال. به استطاع الفلاح أن يظل عامة يومه محنى الظهر، يشق الأرض شقاً، في ذلك القيظ[1] الذي يُنضج[2] الجلود، ويذيب قلب الجُلمود[3]، والقَين[4] أن يصبر على نار كِير[5] تلفح[6] الوجوه، وقعقعة[7] حديد تصم الآذان، وحمل مِطرقة تنهك القوى، والغائص أن ينزل إلى قرار البحر في الزمهرير[8] القارس، محتملا ضيق التنفس، والجندي أن يثبت في ميدان النضال، ويقف ذلك الموقف الرهيب، في جفن الردى وبين ذراعي المنون[9]، والطبيب أن يفحص عن الجراح، ويرى ماتقَزِّزه من المواد القذرة النتنة. دون أن يقشعر بدنه، أو تتقزز نفسه، وما أحسبك تستطيع صبراً على العمل بجانب هؤلاء ساعة واحدة، بل ما أحسبك تقوى أن تغشى ميدان الوغى، أو تبصر الطبيب وهو يباشر عملا جراحياً.

---

(١) شدة الحر (٢) يحرق (٣) الصخر (٤) الحداد (٥) زق الحداد الذي ينفخ فيه (٦) تحرق (٧) القعقعة تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت (٨) شدة البرد (٩) أي في أقرب مواضع الخطر.

ومن تأثير العادة الشديد أنها متى استمكنت من المرء ملكت عليه إرادته ، وعطلت قوته المفكرة ، وقصرته [1] في محبِس لا يُلفى منه مهربا ، ولعبت به لعب الصولجان بالكرة ، ولم يقف في سبيلها خوف من عقاب . أو خشية من ضرر ، هؤلاء مُدمنو الحشيشة يعرفون حظر أولى الأمر ذلك ، وسهرهم على مراقبتهم ، وما ينالهم من اللكز [2] والوكز والفضيحة ، ولكنهم لا يُطيقون عنها صبرا ، وكيف ومن ورائهم سلطان العادة القهار ؟ وكذا المدخنون والسكيرون والمقامرون والسرقة والخونة والكذابون وذوو الأخلاق الفاسدة ، لا ينجع فيهم دواء ، ولا يستطيعون التملص من ربقة تلك العادات . وهم لا يجهلون نتائجها السيئة ، وعواقبها الوخيمة .

ومن ثَم وجب على الآباء لأبنائهم . والمعلمين لتلاميذهم : أن يبثوا في نفوسهم مكارم الأخلاق ، ويعودهم محامد الشيم : منذ نعومة أظفارهم ، فلكل امرئ من دهره ما تعود ، ومن شب على شيء شاب عليه .

ولقد حمل « روسو » ما للعادة من الجبروت أن يقول : « إن العادة الفَذة التي يباح للطفل التمسك بها ألاّ يتعود عادة ما » وليس يرى

---

(١) حبسته (٢) لكزه ضربه بجمع كفه في صدره وكذا الوكز .

بذلك الرأى أن يحول بين الطفل وبين التمسك بكثير من العادات الضرورية للحياة كالمضغ والمشى والكلام ، فذلك محال ، بل يقصد أن ينصح للمربين ألا يجعلوه آلة صماء تنقل كل ماطبع فيها بلا تروية ، بعد أن خلق مفكراً بالفطرة . يقصد أن يربوا فيه الإرادة القوية والعزيمة الماضية التى تنجيه من الوقوع فى أسر العادات ، وأن يكون ابن إرادته لا ابن عادته .

هل نستطيع أن نفعل فعل عظماء الرجال؟

كلما قرأت تاريخ عظيم خلّف أثراً حميداً ، أو سمعت بمخترع أخرج للناس مخترعا عجيباً ، أو رأيت شهيراً نابهاً هزت شهرته جوانب الأرض ، وطبّقت [١] آفاق السماء ، أسائل نفسى هل يستطيع الإنسان ، أن يفعل فعل أخيه الإنسان ؟

ولِمَ لا ، وقد خلق الله الناس جميعاً من طينة واحدة ، وصورهم على مثال واحد ، وسوى بينهم فى جوهر الخلقة ، وإن باين بينهم فى أعراضها [٢] ؟

قد يحاجّنا المعارضون فيقولون : ولكنه لم يسو بينهم فى العقول والأفهام ، إذ نرى بأعين رءوسنا ذكياً ألمعيا سريع

(١) ملأت (٢) من الطول والقصر واللون والصوت والسحنة .

الخاطر حاضر البديهة ، ثاقب الحجا ، وغبياً قد ختم [1] على قلبه ، وغشّى [2] بأكنّة [3] من الغباوة والبله ، ويعززون رأيهم بما أثبته علماء التاريخ الطبعى من أن وزن المخ ليس سواء عند كل الأفراد [4] ،

وجوابنا على ذلك أنا لا نرى فى العقل إلا ما يراه «الفارابى» إذ يقول «ليس العقل بشىء آخر سوى التجارب ، وكلما كانت التجارب أكثر ، كانت النفس أتم عقلاً » فإذا رأيت فى الناس ذكياً وغبياً ، فذلك لأن الأول استعمل ما وهبه الله من القوة المفكرة فيما خلقت له من التعقل والتجربة ، والثانى عطلها وأماتها.

على أننا لا نمنع أن بعض الناس قد خلقوا بفطرتهم أغبياء، لا تعلَق المعلومات بأذهانهم إلا بعد جهد وعناء . ولا تستمر فيها زمنا طويلا ، حتى لقد قرر الباحثون فى علم النفس أنه ليس من المستطاع إصلاح استعداد المخ الطبعى للحفظ والذكر لأمثال هؤلاء ، كما لا نمنع أيضاً أن بعض الناس قد أوتوا قوة من الذكاء الفطرى . والفطنة الطبعية خارقة للعادة ، ولكننا لا نستطيع

(١) أى طبع عليه فلا ينفذ فيه شىء (٢) غطى (٣) أغطية (٤) أثبتوا أن موسط ثقله عند الجنس الابيض ١٤٠٠ جرام والجنس الاصفر ١٣٠٠ والجنس الاسود أقل من ذلك وعند الاغبياء يتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ جرام وقد يصل إلى ٢٥٠ كما أنه قد يصل إلى ١٨٠٠ جرام عند ذوى الذكاء المفرط .

القول بأن تلك القوة قصر على أولئك الذين نسميهم « عظماء »، وموهبة استأثروا بها دون سائر أفراد البشر .

أجل إن بين أولئك الخاملي الذكر من هم أولو ذكاء نادر، وحجا موفور يؤهلهم للنبوغ والتبريز حتى على هؤلاء العظماء، ولكن ترى ماذا قعد بهم عن أن يفعلوا فعلهم ويبلغوا مرتبتهم؟ عاقهم عنها على ما أرى عوائق عدة منها : —

أنهم ينظرون إليهم بغير العين التى ينظرون بها إلى أنفسهم. يرون فيهم النجابة والكَيْس [1] والفَراهة والكفاءة، فيبجلونهم ويرفعونهم فوق منازلهم، ويرون فى أنفسهم العجز والضعف والقصور، فتهون لديهم هوانا لا يقدرون معه لها قدرا. ولا يقيمون لها وزنا، يتضاءلون ويتصاغرون قائلين: ما لنا ومساماةَ أولئك الذين لا يشق لهم غبار، ولا يدرك لهم غور، وهل يستوى السُّكَيْت [2] والمُجَلّى؟ وأين الثرى من الثريا؟ وكيف نرقى رقيهم وقد نزلوا لدى موطن يقصر عن إدراكه المتناول؟ هكذا يحكمون على نفوسهم، ويزجون بها فى سجن الخمول؛ لقد ضلوا فى حكمهم وما كانوا مهتدين .

---

(١) ضد الحمق (٢) الفرس الذي يجيء فى الحلبة آخر الخيل، وهى على هذا الترتيب المجلى. المصلى. المسلى. التالي. العاطف. المرتاح. المؤمل. الحظى. اللطيم. السكيت. وما جاء بعده لا يعتد به .

ناشدتكم الله خبروني من هو إفلاطون وسُقراط وأبقراط وأرسطو وجالينوس والفارابي والرازي وابن سينا وابن رشد والغزالي والمعري وسبنسر وداروين وكلارك وروسو ومنتسكيو وهوبس وفولتير وهوجو وكارليل وتولستوى ؟ ومن هو فرانكلين ونيوتن وأديسون وفرداى وأرشميدس ولافوازييه وجوتمبرج وواط واستفنسن وهويتستون وداجير وماركوني ؟ ومن هو الإسكندر المقدوني والفراعنة وعنترة وخالد بن الوليد وصلاح الدين ونابليون ومحمد الفاتح ؟ من هم هؤلاء الذين خلد ذكرهم الزمان ، وسارت بسيرتهم الركبان ؟

إن هم إلا بشر مثلكم كانوا يأكلون ويشربون ، كما تأكلون وتشربون ، لهم عقول كعقولكم . وأفهام لاتربو على أفهامكم . ولكنهم جدوا التفكير ، وأدمنوا التجربة — وقد تنفع من ليس ذا بَسطة في الذكاء — ففتقت لهم عن أشياء لم تزل عنكم في طي الخفاء .

أعجب ما عجبت له أن أرانا نطأطئ الرءوس أمام قولة أو رأى يجود به علينا أولئك العظماء ، ولا سيما إن كانوا ممن قد غبَرت [1] عليهم الأحقاب ، أو كانوا من ذوى الأسنان [2] ، فإنا نقلدهم

---

(١) مضت والأحقاب جمع حقب بالضم وهو ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة أو السنون

(٢) جمع سن وهو العمر .

فى آرائهم وأقوالهم، بل نحبذها ونقدسها ، ولا نسوغ لأنفسنا أن تنشط من عقالها ، فتنتقدها ، وكثيرا ما نستند إليها ونحتج بها فى مناظراتنا، لم ذاك ؟أهم رسل لايجوز عليهم الخطأ ؟أ آراؤهم شريعة مقدسة لايجوز الا فتيات على واضعيها ؟ ألا يجوز أن يكون فينا من وهب تأملا أصح وفكرا أنفذ؟ ألا يجوز أن يقع الخطأ فى النقل والرواية فلم نتحرج من إصلاحه ؟ نحن لاننكر أن المرء كلما كبرت سنه نما عقله وازدادت تجربته ، وأن رأى الشيخ خير من مشهد الغلام ، ولكن نقول :

فما الحداثة عن حلم [1] بمانعة

قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

حيًا الله أمة العرب وبيّاها [2] . إذ نقلت ما نقلت من العلوم عن الأمم القديمة ، مستقلة الفكر ، حرة الضمير ، لم يمنعها تلقيها عن أساتذتها حكماء اليونان ، أن يصلحوا أغاليطهم فى الفلسفة والفلك والجغرافية وغيرها ، وذلك شأن كل أمة تنشد الرقى الصحيح .

وأعجب من تلك أن أرى خاصتنا وعامتنا يقفون أمام المخترعات الحديثة وقفة الدهش المبهوت ، يقولون هذا ما فعل

---

(١) العقل (٢) قربها أو إتباع لحيا وليس بشىء .

الإنسان ؟ هل استطاع أن يبلغ ذاك المدى ؟ لالا ، ما هو بفعل إنسان ، بل شيطان أو جان !

سئم بصرى وسمعى رؤية تلك الكلمة وسماعها، وهى «عجائب القرن العشرين ، عجائب القرن العشرين» ماهى تلك العجائب وهاتيك الغرائب ؟ ألم تنتجها قرائح بنى الإنسان ، وتجد بها عقولهم ؟ اللهم إنها ليست بعجائب إلا فى أعيننا نحن الذين جمدنا عن مباراة تلك الأمم الحية . فى مضمار الحياة العملية ، واجتزأنا [1] بقشور العلوم دون لبابها ، فغدا كل ما تقع عليه أبصارها مدهشاً غريباً ؛ وكل جائز لدى غيرنا عويصاً علينا مستحيلا !

لا أرى فى هذا الكون مستحيلا ، ما دام قد حقق امرؤ من الناس وجوده ، ولا أعرف له حدا إلا أنه ما فوق طاقة البشر ومقدورهم .

ومن تلك العوائق وهن العزيمة وضعف الصبر والجلد . تراهم إذا ما ابتدءوا العمل . فاعترضتهم عقبة، أو أخفقوا فى تجربة . أو حاروا فى حل معضلة ، أو أبطأ عليهم النجاح ، تملك نفوسهم اليأس ، واستحكمت فى قلوبهم حلقاته ، ففترت هممهم وخار

---

(١) اكتفينا .

نشاطهم ، وغُلّت أيديهم ، وولوا مدبرين .

لا أحد منا يجهل تلك القضية المشهورة « كل عمل فى بدئه صعب » ولـكن لا تنس أن كل صعب إلى سهولة ، وكل عسر إلى مياسرة ، وقد تستوعر العمل وتستصعبه ، ثم تعالجه فإذا هو سهل ميسور .

فاس الهموم تنل بها نُجُحا والليلَ إن وراءه صُبْحا

ولا نغالى إن قلنا إن الصعب ما يستصعبه المرء ، والسهل ما يستسهله ، فتى خامر نفسك الاعتقاد بأن ذلك العمل شاق لا يُبلغ ، رأيت رَحبه [1] ضيقا ، ووَضَحه وعرا ، ومتى استصغرته واستشعرت القدرة عليه ، والـكفاءة له ، عاد جامحه مرُوضا [2] ، وصابه مارنا ، وصابه [3] عسلا .

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى

وما الأمن إلا ماراه الفتى أمنا

انظركم أخفق الطيارون فى طيرانهم ، وكم ذهب منهم ضحايا وشهداء ، وكم نالهم من تحطيم وتهشيم — وذلك ما يصيب كل المخترعين — بل انظر كيف يضل الـكاشفون فى مجاهل الأرض

---

(١) متسعة (٢) ذلولا (٣) شحر مر .

وظلمات المحيطات ؛ ولكن ذلك كله لا يثنى منهم عزما ، ولا يَخضِد [1] لهم بأسا

ومنها اضطهادهم وكثرة الشَغَب عليهم ، فلا يكادون يصدعون برأى ، أو يبرزون عملاً ، حتى ينصِبَ [2] لهم الحساد ، ويتألبوا [3] عليهم ، وينثروا كنانة حقدهم ، فلا يدعوا فيها سهما ولا ريشة إلا رموهم بها ، حينذاك يَنكُلون عن الثبات أمامهم ، ويفرون على أعقابهم ناكصين . ويقبَعون [4] فى كِسر بيتهم ، مؤثرين المعيشة الهادئة الساكنة التى لا تمازجها غضاضة ولا تكدير.

ولكن ليس من أصالة الرأى أن يصرفنا ذلك النُعاب [5] والجَلَب عن الجهر بآرائنا والسعى فى تأييدها ، مادمنا نعلم أنها حق ، ولن يعدم الحق أنصاراً وأعوانا .

لتكن لنا أسوة حسنة فى الرسل المكرمين ، وتابعيهم الأطهار ، أولئك الذين نالهم فى سبيل هداية قومهم من غَوايتهم ، ما نالهم من الأذى والامتهان ، والتضييق والاضطهاد . مما يُحرِج [6] صدر الحليم ، ويُثير غيظ الجبان . ولكن إيمانهم الثابت بصدق رسالاتهم ، ثبّت أقدامهم فى ميدان جهادهم ،

---

(١) خضد العود كسره (٢) يعاديهم وأصله من لناصبية وهم المتدينون ببغضة الامام على (٣) يتآمروا (٤) ينكمشون وأصله من قبع القنفذ أدخل رأسه فى جلده (٥) صوت الغراب أى الصياح وكذا الجلب (٦) يضيق.

فَصَبَرُوا وصابروا[١] ، وجدوا وجالدوا ، حتى دانت لهم القلوب القاسية ،[٢] وسلِست النفوس الجامحة .

وهؤلاء محررو الشعوب وأبطال العالم ، كم جرَعوا كئوساً مُتْرَعة[٣] من البلاء والهوان ، وصبت على رءوسهم صواعق النَّكال والتعذيب ، وفُجعوا فى كل عزيز لديهم وغال ، فلم يَزدهم ذلك إلا شدة استمساك بآرائهم ، وقوة ثبات على مبادئهم ، ولم يحُولوا عنها قِيد أُنملة ، ولم يحفِلوا بما يَلفح جسومهم من سعير الشقاء ، مادامت أرواحهم من فِردوس الحق فى نعيم مقيم .

ألم ينْمِ[٤] إليك نبأ « سقراط » ذلك الفيلسوف اليونانى الشهير ، إذ رأى قومه غارقين فى لجج المعتقدات الباطلة ، والخزعبلات المزرية ، فلم ينِ[٥] فى معالجة أدوائهم ، وانتشالهم من وهادِهم ؛ حتى اتهم بإفساد الشبان ، والسعى فى هدم دعائم الدين ، وقضى عليه أن يتناول الشوْكران[٦] ، فلم يفُلّ ذلك من عزمه ، ولم يَحِد عن شِرعته[٧] ، وولَج عليه السجن تلميذه « كريتون » بعد أن رشا السجان ، وتضرع إليه أن يهرُب إلى « تساليا » وسهل له سبيل الاباق[٨] فأبت نفسه الأبيّة ، وذكر تلاميذه بوجوب

---

(١) غالبوا أعداء الله فى الصبر على الشدائد (٢) لانت وانقادت (٣) مملوءة
(٤) نمى إليه الخبر بلغه (٥) لم يقصر (٦) نبات سام وكان يسقاه كل من يحكم عليه بالموت
(٧) شريعته (٨) أبق ذهب بلا خوف ولا كد عمل أو استخفى ثم ذهب .

الإذعان للقوانين مهما كانت صارمة ، ثم تناول السم باسم الثغر رابط الجأش ، مشجعاً من حوله من أحبائه الباكين !

أوهل عرفت أن « خرستوف كولمب » حين أزمع التجوال فى المحيط الأطلسى ، أقام له حساده العراقيل ، وحكم مجمع « سلامانك » أن عمله مناقض لأصول الدين ؟ ولكنه ثابر وتجلد ، حتى كشف تلك القارة الجديدة ، التى أصبحت مورد رزق وفير للعالمين.

أتذكر ما لاقاه « مارتن لوثر » من المناهضة العنيفة ، والاضطهاد القاسى ، فى سبيل إصلاح الدين المسيحى بأوربة ـ أوائل القرن السادس عشر ـ حتى نقم منه البابا ، وغلى مرجل غضبه ، فأعلن كفره وحرمانه من الغفران ، فلم يكن جوابه على ذلك إلا أن أحرق وريقة الحرمان جهارا ، ودأب فى منهجه غير وَجِل ولا هيّاب .

ما أشد إكبارى لعزيمتك الماضية يا « جاليليو » وما أعظم إعجابى بإرادتك الفولاذية ، حين قلت بدوران الأرض ، فعدّ قولك كفراً صُراحا (١) ، تستحق عليه الموت الزؤام ، وقبضت عليك محكمة التفتيش « سنة ١٦٣٣ » وقضت فى محا كمتك عشرين يوما ، ذقت فيها من ضروب الإرهاق ما يزهق الأرواح ،

---

(١) صريحا .

ثم قسرتك[1] أن تجثو[2] أمامها صاغرا تلتمس الصفح والغفران؛ فثارت إذ ذاك حَمِيتك ، وشقّ عليك أن تنكر حقيقة وثِقت من معرفتها حق الثقة. فسرعان ما نهضت ضاربا الأرض بقدمك صائحا. إن الأرض لدائرة !!!

سل التاريخ — وهو ملىء بذكر أمثال أولئك الفحول الصناديد — ينبئك أصدق إنباء ، أن العظيم لن يرقى ذروة العظمة ، إلا بعد أن يتقلب على أشواك المِحنة والبلاء .

تلك ثلاثة الأسباب من أكبر ما يعوق الرجل عن بلوغ شأو العظماء ، وما أراه — إن هو نزع عنها — إلا منتظما معهم فى عقد مصافحا لهم يداً بيد .

دع ما يريبك الى مالا يريبك

خير الناس من سبر غور عمله . ووزنه بمعيار فكره ، وأنعم فيه ثاقب نظره . وطالع صحيفة مستقبله بتدبر وتروية ، فلا يرد موردا إلا حيث يجد حسن مصدر ، ولا يسلك إلا نهجاً من الحق نيرا ، ولا يأتى أمرا تحف به الشكوك والأوهام . وتكتنفه الشُبه والريَب .

---

(١) أكرهتك (٢) جاثيا على ركبتيه .

أجل إن من الحزم أن يقدر المرء لرجله قبل الخطو موضعها. وأن يستجلي خبيئات ما يشارفه من الأعمال، ويستكشف عن دقائقها، ويضع نصب عينيه نتائجها، وأن يدرّع بدرع من الإراده الحازمة، والعزيمة الصارمة، فلا يحتنكه [1] شيطان النزق والطيش يزين له حسن ما لها، ويصور له نجحها وفلاحها . بل عليه أن يقدر بإزاء ذلك ما عسى أن يكون من سوء العقبى، أو ماينجم عن إتيانها من الأخطار فيتجافى عنها، ويتنكب عن طريقها، وبذا يسلك جادّة [2] الهدى آمنا العثار، مسترشدا بنور اليقين، حامدا غب السُّرى [3] .

إن جلائل الأعمال وعظائم الأمور، تستدعي أناة [4] وتبصرة ونظراً سديداً لايخامره الشك، ولا يتسرب إليه الريب فينبغي للمرء ألا يُقدم عليها، وهو مستريب بها شاك فيها . وإلا عاد يحرق الأُرَّم [5] ويعض بنان الندم، أسفا على مافاته من الحزم.

على أن الريب كثيرا ما يكون باعثا لصاحبه على الخبط [6] والتخليط. فيسير في عمله سير المعتسف [7] الحيار . لا يعلم ما يأتي وما يذر . بله ما يضيعه من نفيس الوقت والراحة والمال،

(١) يستولى عليه (٢) الجادة وسط الطريق (٣) السير بالليل (٤) حلما (٥) الأضراس وأطرف الأصابع (٦) خبط الإبل سار فيه على غير هدى (٧) اعتسف عن الطريق خبطه على غير هداية والحيار الكثير الحيرة .

وما يبوء به من الفشل ووخيم المغبة .

التاجر الذى لا يستيقن الربح والنَّفاق[1] إن هو اتجر بتلك السلع ، أولى له أن يدعها إلى مالا ريب فى نفاقه . ومن إذا أقدم على ركوب البحر ، اختلج نفسه ريبة فى النجاة ، أجدر بأن يتنحى حتى تؤمن الأخطار ، ومن إذا أراد عبور مفازة خامره خوف من عدو هاجم ، أو حيوان صائل ، أخلق به أن يعدل إلى طريق الأمن ، ومن يظن أن فى إتيان هـذا الأمر مايغضب رئيسه أو يُحفظه[2] عليه حَرِىّ أن يدعه إلى ما يهواه إن كان حقا ، والأمثلة كثيرة تغنى عن الشرح والتبيان ، وكلها ناطقة أن ترك ما يَريب والأخذ بمالا يريب أحسن عاقبة وأحمد غبا.

أنا لا أريدك على أن تدع كل ما يتسرب إليك فيـه شك وارتياب ، فجل الأمور لا تـكاد تخلو من ذلك ، ولـكن لتجعل العقل وزيرك ،والفكر الصائب مشيرك ، ولتوازن بين كِفة الريب وكِفة اليقين ، فإن رجحت الأولى فتجافَ وأحجم . أو الثانية فامض وأقدم .

من الناس من شُلت إرادتهم وقصر نظرهم . فإذا ما جال

---

(١) الرواج (٢) يغضبه

فى خلدهم عمل أى شىء، تسابقت إليهم ظنون السوء، وسلت عليهم سيوفها الأوهام، فغدوا فريسة الشكوك والوساوس، ووقفوا حائرين ذاهلين، لا يعملون عملا، ولا يبلغون أملا.

ومنهم من هو طائش الإرادة يثب إلى العمل توّة سنوحه فى خاطره، ويستريب به ولكنه يندفع إليه اندفاعا، فلا يلبث أن يعود بخفى حنين.

فلتكن أنت وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء، لا تستسلم لسلطان الريب، ولا تَصدِف عنه بتاتا، بل خذ من حكمه أخذ العليل من الدواء، يكن السداد رائدك، والرشاد قائدك، والنجح حليفك، والفوز أليفك ؟

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

ما المدارس تلك البِنى [1] التى عهدناها تضم بين جدرانها فئة من التلاميذ، يتلقون على أساتذتهم مختلف العلوم، بل هنالك مدرسة أرحب مكاناً، وأوسع علما، وأمهر معلما، تلك هى التى

---

(١) جمع بنية وهى ما بنيته .

مكانها متسع الكون ، ودروسها حوادث الحياة ، ومؤدبها الدهر ، ونعم المؤدب الدهر .

يدخل المرء هذه المدرسة — وهو مَن علمنا ، لم يخلق محنكاً في التجارب ، مضطلعاً بدقائق الأمور — فيتلقى فيها دروساً جليلة خطيرة ، لا تبتاع بالنُضار [١] ، دروساً لو فطِن لها العاقل الكيس ، ودرسها بإمعان ودقة نظر ، وعمل بها فى عامة شؤونه ومقاصده لباء بالعاقبة الحسنى والفوز العظيم .

تعلمه أن يتخذ من ماضيه عظة فى حاضره ، ومن غائبه حيطة اشاهده [٢] ، وأن يقيس مالم يره بما رأى ، ويعتبر بما يمر عليه من الحوادث والتجارب ، فيحسب للأمر حسابه قبل وقوعه ، ويتجافى عن مواطن الأذى والتهلكة ، ويربأ [٣] بنفسه أن يتدهور فى مهواة هوى فيها من قبل ، أو يلج جحراً لدغ منه ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وما يدريك لعله إذ أقيلت عثرته فى الأولى ، لم تُقلْ فى الأخرى ، أو أبلّ من جُرحه الأول ، لم يُفرِق [٤] من الثانى « ما كل يوم يصفو لك الحلب » .

ومن ذلك ما تقول العرب فى أمثالها « لم يذهب من مالك

---

(١) الذهب (٢) لحاضره (٣) يرتفع (٤) أفرق من مرضه برئ .

ما وعظك» أى أنك إن نكبت بفقدان مال ، فاتعظت بكبوتك ، فإن مالك الذى ضاع منك لم يفقد على الحقيقة ، إذ علمك أن تتحذر من التورط فيما وقعت فيه أولا ، وحفظ عليك ما كنت ستفقده ثانية .

ترى ذاك الذى خسر من ماله فى مضاربة أو تجارة . أو سلبه المشعوذون ثروته فى سبيل الحصول على كنوز موهومة ؛ أو وقع فى حبائل المحتالين ذوى الخب والخديعة ، تراه وقد تكشفت له الحيلة ، وانجلت لعينه الحقيقة ، حذراً يقظاً يكبر أن يصاد . إن هو اتعظ بما وقع له .

قل لى بربك ما بال عليل عرف مصدر عاته ومنبعث مرضه. ثم لم يتقه ؟ إنه لايلبث أن تنهكه العلة وتودى به . وما نصيب ملاح مر بمنطقة شديدة العواصف ، كثيرة الحشف [1] ، فتحطمت سفينته وغرقت . ونجا بإسعاد المقادير ، ثم لم يتحاج [2] عن تلك المنطقة فى سفرة أخرى ؟ نصيبه الدمار والبوار.

بل كيف يكون معاد جيش أهمل وتهل فلم يستكمل عدته وعتاده ، حتى دهمه العدو . فنال منه نيلا ، فلم يعتبر بذلك بل

(١) الصخر النابت فى البحر (٢) لم يتنح .

استغرق فى سباته العميق ، حتى أعاد عليه الكرة ؟ لاشك أنه يمزق من بقى منه إرْباً إرْباً [١] .

وكذلك الشأن فى الأمم ، فالأمة الرشيدة الحازمة تتعظ بما تفقِده من مالها وقوتها ، فتحاذر أن تزل زلتها الأولى ، ويعلمها خطؤها كيف تجبر كسرها ، وتسد ثلمتها ، وتعيد مجيد سيرتها .

كتاب توصية

من صديق الى صديق له من ذوى الرآسة يرجوه العناية بأمر مرءوسيه

صديقى الفاضل

سلام عليك ورحمة الله

وبعد فقد رأى فلان ... أن لا أحد أنفذ وَساطة لديك ، فى إبلاغه ما يأمل من رفع مرتبته ، وإلحاقه بنظرائه سواى ، لما عرفه من كبير ثقتى بك ، وعظيم مكانتى لديك ، وثبت رجاءه ما يعتقده من واكف [٢] برك ، وفائض معروفك . وحاشاه أن يشيم خُلَّبا [٣] ، أو يَصدَى وغيثك هامٍ [٤] ، أو تلفحه الشمس وظلك وارف .

على بابك المعمور لازال عاليا مطيات آمال البرية واقفه

(١) عضوا عضوا (٢) المطر المنهل . (٣) البرق الخلب المطمع المخلف (٤) همى الماء انصب .

عظة الوارثين

بينما كنت أجول فى إحدى الطرقات ، إذ دنا منى شاب فى مقتبَل العمر ورَيْعان الشباب ، تبدو على مُحَيَاه سيمى الكآبة والأسى ، فسلم علىّ تسليم العارف لى ، وقال : ألا تذكرنى ؟ فشخَص [(١)] بصرى إليه ، ثم قلت له : ياصاح ، أذكر أنى رأيت شخصك ، ولكن لا أدرى أين ومتى رأيتك ، وقد غاب عن ذاكرتى اسمك فلا تؤاخذنى بما نسيت ، قال أنا فلان بن فلان ، قرينك فى التعليم الابتدائى ، فذكرته وأقبلت أحيّيه تحية الشيّق إليه ، المرحَّب به . ثم قلت له : ولكن مالى أراك فى تلك الهيئة الرثة ، والحال المستنكرة ، وقد عهدتك من بيت عزة وثراء ؟! فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأخذته رعدة المحموم ، وقال بصوت خافت [(٢)] متهدِّج [(٣)] قد تبدّلت عزتى شقاء ، وثرائى فقراً مدْقعاً ! [(٤)] فسألته : وكيف حالَ حالك ، وساء مآلك ؟ قال : قضى والدى « رحمه الله تعالى » وقد كنت لذلك العهد تلميذاً بالسنة الثالثة كما تعلم ، وكنت مصادقاً فئة من أبناء الأغنياء أمثالى ، فزينوا لى أن أهجر المدرسة ، وأقطع حبل الدراسة ، وقالوا : مالك ولهذا

---

(١) شخص البصر ارتفع (٢) ساكن (٣) متقطع فى ارتعاش (٤) ملصقا بالدقعاء وهى الارض.

العناء الوافر المتواصل ، أتبغى أن تُحرِز شهادة تنال بها من الراتب مالا يكفى دفع رواتب خدامك ، على حين أنك قد ورثت من المال ما تعيش به عيشة الأمراء المترفين ؟ وما زالوا يوسوسون فى صدرى حتى جنَحت(١) إلى رأيهم ، وأجبت داعيهم ، فأصبحت متعطلا ، لاعمل لى ولهم غير الاختلاف إلى القهوات والمنتديات ، ولاهم لنا سوى المرَح فى ميادين الملاهى والملاذ ، فمن حانة خمر إلى مائدة قِمار ، إلى ماخور فجور(٢) ، إلى نَدوة(٣) غناء ، الى دار تمثيل هزلى ، ومن مصِيد حمام ، إلى سباق بالخيل ، إلى لعب بالكرة والصولجان ، إلى مصارعة وملاكمة ، وكل ما أعمل فيه فكرى ، وأكُدُّ فيه ذهنى ، مظهر بهىّ ، ومنظر طلىّ ، ومأكل شهى ، وملبس فاخر ، ومركَب باهر ، وترف وافر ، وهكذا طفقت أبعثر أموالى ذات اليمين وذات الشمال ، وغفَلت عن ضِياعى وبيوتاتى ، وتركت زمامها بيد وكيلى ، معتقداً فيه الأمانة والنزاهة. فجعل يختلس من دخلها ماشاء وشاء له طمعه الأشعبى . إذ لا رقيب يناقشه الحساب ، ولا مطلع يكشف عن جرائره(٤) النقاب ، وماهى إلا دورة الفلك ، حتى استيقظت من سُباتى ، فرأيتُنى فى بحارِ الديون غارقا ، وبأغلال الحجر مكبّلا ، ولم يلبث الدائنون أن انتزعوا

---

(١) ملت (٢) بيت الريبة (٣) مجلس (٤) جناياته.

منى كل ما أملكه قاطبة [١] ، فأصبحت صفر اليدين ، لا أملك فتيلا [٢] ولا قطميراً [٣] ، وظللت أتكفف [٤] إخوانى الذين كنت أغدق عليهم بالأمس ، فضنوا علىّ اليوم بالبخس ، وجعل متلطّفهم يعتذر بضيق ذات يده ، ويَعدنى إلى ميسرةٍ مواعيدَ عُرقوب [٥] ، لولا أن قيض [٦] الله لى صديقاً من أصدقاء والدى رثى [٧] لما قد نابنى ، فجعل يُمدنى آونة بعد الأخرى بمنحة أسد بها مَفاقرى [٨] ، وأصلح بها شأنى ، وهاهوذا يسعى فى إيجاد عمل لى أقتات منه ، وهنا عاوده البكاء ثانية ، وقال صدق القائل : « صنعة فى اليد أمان من الفقر : » فلم أتمالك عن مشاطرته الحزن والأسى ، ثم سكنت من ثائرته ، وكفكفت من دموعه ، وقلت لا تيأس من رَوح [٩] الله ، ولا تقنط من فرَجه ، فإن مع العسر يسراً ، وبعد الشدة رخاء ، وخذ بأسباب أى عمل منه تعيش ، فلا عار فى عمل يصون صاحبه عن التبذل ، وإراقة

---

(١) جميعا (٢) ما فى شق النواة (٣) القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة (٤) تكفف السائل طلب بكفه (٥) هو رجل من العماليق . أتاه أخ له يسأله ؛ فقال له : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها ، فلما أطلعت أتاه . فقال : دعها حتى تصير زهوا « يتلون بلحها ويظهر فيه الحمرة والصفرة » فلما زهت ، قال : دعها حتى تصير رطباً . فما أرطب ، قال : دعها حتى تصير تمرا . فلما أتمرت ؛ عمد إليها عرقوب من الليل فقطعها ، ولم يعط أخاه شيئاً . فصار مثلا فى الخلف . وفيه يقول الشاعر :

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

(٦) هيأ (٧) رحمه ورق له (٨) وجوه فقرى (٩) رحمة.

ماء المحيّا على أعتاب المسألة ، ولعلك تستفيد من هذا الدرس القاسى موعظة تنتفع بها فى مستقبل حياتك ، إن قدر لك أن تعيش عيشة اليسر والرخاء .

الضيف الثقيل

وفأر خبيث قد ألمّ بدارنا ،
فقرّ بها عيناً ، وطابت له شِرْبا [1]
أتى مستضيفاً لائذا بجِوارنا ،
فألفى مَراحاً فى جوانبها خِصبا
وأغضيت عنه بادئ الأمر مُصْغراً
أذاه ، فلم أحفِل به : نام ، أم هبَّا
وآويت ضيفاً طارقاً ، قد حسبته
وفيا بحق الضيف ، لا فاجرا خبًّا [2]
ومن عجب أنا حميناه ، فانبرى
يشُن علينا من مكايده حربا !

يجوس خلال البيت ، لا متهيبا
مَصادا ، ولا يخشى رقيباً إذا دبا

---

(١) مورداً (٢) بالفتح والكسر خداعا .

يروح ويغدو مطلقاً ، فتخاله
عشيراً لأهل الدار ، بل مالكاً ربّا
وفى المخزَن المعمور يمرح عائثاً
ينال طعاماً سائغاً مشتهى عذبا
عطاء بلا من ، ورزق ميسر ،
وكسب بلا كد ، فأنعِمْ به كسبا
أغار على الأثواب غارة فاتك
فياوَيبَ أثوابى بأنيابه ويبا [1]
ولا تسلَنْ عما أصاب مِظلتى
وقد باهت الغِربال تفخَره ثقبا [2]
« ومن يصنع المعروف فى غير أهله
يجازوه سوءاً وهو لم يقترف ذنبا »
كذاك سَليل السوء يغذُوه ربه
فيُملى عليه اللؤم أن يأكل الربا »

أقام له فى السقف جحراً مخبأً
منيعاً ، يحاكى فى تناوله السُّحبا

(١) ويب كويل (٢) فاخره ففخره غلبه .

كَوكر عُقاب فوق قُنة شامخ
حَمته فسلت من مخالبها قُضبا (١)

وأضرمت فى السقف اللظى لأهِيجه
فعادت هباء لم تحرك له قلبا

وظل يِكسر الجحر معتصما به
فأطفأتها كيلا أضير بها الخُشْبا (٢)

دسست له سما مميتاً لحينه
وأكبر ظنى أنْ سيقضى به النحبا

حشوت له الكِبريت فى طى كِسرة
صببت مياه النار فى جوفها صبا

فعاف تعاطيها ، وأعرض نائياً
ومن ذا الذى أنباه أن بها عيبا ؟

وجئت بقط كالهِزبْر بسالةً ،
ضليع بصيد الفأر ، يسبقه وثبا

ومِصيدةٍ ، كم أحكمت صيد مثله
جعلت قِراها اللحم والتين والربَّا (٣)

---

(١) قنة الجبل قمته والقضب السيوف القواطع (٢) ضاره ضره (٣) القرى ما يقدم فى الضيف والرب ثقل السمن (المرته) .

ولم أر فأرا مثله متيقظاً
بصيراً بأسباب الردى حاذقا طَبا(١)
إذا ما أَحسّ القط فرّ مولياً
فرار ظَليم مُفزَع، يبتغى المخبا
نصبت له فخاً صيُوداً لو انطوى
عليه لأرداه وذاب به ذَوبا
وأيقنت أنى لا محالة ظافر
ولكننى لم أقضِ من نيله إربا(٢)
وأبصرته يمشى لدى الباب مرة
فأقبلت أعلو رأسه بالعصا ضربا
فأخطأت مرماه وبُؤت بحسرة
وأسرع عَدْواً كالجواد إذا خَبّا(٣)

صبَرت على كيد له يُورث الجَوى
وأوسعته من فَرط مَوجِدتى سبّا
« إذا ما مناك الدهر يوما بحادث
وجرد سيفاً من مُلمِاّته عَضبا »(٤)

(١) الطب الماهر الحاذق بعمله (٢) مأربا (٣) الخبب ضرب من الجرى (٤) قاطعا.

« فكن حجراً صَلدا لِمعوَل بأسه
ومن يعتصم بالصبر يستعذب العُقبى »
« ولا تَبخَعَنَّ النفس حزناً ولوعةً
لعل وراء الغيب يُسراً به تُحبى »[١]

وكم قد حمى عينى لذيذَ رقادها
بقرض مُخيف يسلُب العقل واللُّبا
ولم أنسه إذ ضج فى الليل ضجة
فسهَّد أجفانى ، وأفعمنى رعبا
وساورنى همٌّ ، وخِلت كأنما
ألم بنا لص يروم لنا سلبا[٢]
نهضت لأُقصِيه وأحمى ذِمارنا
إذا فأرُنا فى الفخ يسحبه سحبا
وقد نَشِبت رجلاه فيــه وذيله
وأيقن أن الموت حاك له ثوبا
فتِهت سروراً ، واغتبطت كأننى
بمَيدان حرب قد غنِمت به نَهبا[٣]

(١) بخع نفسه قتلها هما . وحباه منحه إياه (٢) ساوره أخذ برأسه وواثبه (٣) اغتبط به فرح وسر .

ولم يألُ وسعاً فى الخلاص مجاهداً
جهادَ غريق يائس ينشُد الصَّحبا
وما هى إلا غَمضة وانتباهة
ففر طليقاً ، بعد ما كاد أن يُسبى
ولاذ بأذيال الفرار مسارعا ،
وراح يجوب الأرض ينهبها نهبا
ورحت أعض الكف من فرط حسرتى ،
ومن سوء توفيقى ، فتبًّا له تبًّا !
عَيِيت به لا أستطيع صِدامه ،
عييت به ، والمرء يعجِز لاريبا
« وان لم يَحِن حَينُ الفتى يتخطَّه
ولو نُصبت أشراكُ قاتله نصبا »[1]
« وإن حان أرداه ولم يُغْن حِذره
وأعلقه : شرقاً توجه ، أم غربا »
« ولقنى أن النجاة من الردى
مُيسرة ، مادمت تستشعر الدأْبا»

(١) الحين الموت .

« ولقننى أن النجاة من الردى
ميسرة، مادمت تستسهل الصعبا »

ألا أيها الضيف المثقل، حسبنا
ملِلناك حِبا، فاتخذ غيرنا حِبا[1]
وقطع حبال الوصل « واقرِض » عهوده
وإن كنت فينا عاشقا مدنفا صبا
أقمت بمَغْنانا ثلاثة أشهر
فبادر وأخل الدار نُخْلِصْ لك الحُبا[2]
وسوف تنال الخصب فى غير ظلها
وتعتاض من ضيق بها منزلا رَحبا
أيارَبِّ هل تُشفى بمرْداه مهجتى
أرى دمه يجرى على الأرض منصبا؟[3]
يمينا لئن أظفَر به لَفَريته،
ولن أنثنى حتى أوارِيَه التربا
وإن مت مَوتورا ولم تُشفَ علتى
قضيت بدائى لا أنال له طبا[4]

---

(١) حبيباً (٢) المغنى المنزل (٣) مرداه مصرعه (٤) الموتور ذو الترة (الثأر).

فهرس الموضوعات

« استدراك ما وقع من الأغلاط أثناء الطبع »

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٨	سائقة	سائغة
١٢	٤	الا تتطار	الا نتظار
٢١	١٤	تعلم العلم لا للمال	تعلم العلم للعلم لا للمال
٥٣	١٢	شآن	شأن
٥٧	٧	يتضاغون ويعولون	يتضاغوا ويعولوا
٥٨	١٤	بحاجة	بحاجه
٧٦	٦	أقاد	أفاد
٧٩	٥	وأثرة	وأثره
٨٠	١٠	آمامهم	أمامهم
٨١	٤	المعجات (٣)	المعجات
٨١	٥	وهجره	وهُجره (٣)
٨١	١٤	يهدوء	بهدوء
٨٢	٨	بالغاء	بالغا
٨٣	١٨	تخشو	تخشوا
٨٧	٦	تمنعه	تمنعه
٨٨	١١	شجاع	شُجاع
٩٧	١	يميت	بميت
١٠٠	١	الرأى	الرأى
١٠٥	١	هس	هل
١٠٧	١٦	يصدق	بصدق
١١١	٥	مالها	مآلها